
coptic-books.blogspot.com
العناية
الإلهية
القديس يوحنا ذهبى الفم

العناية الإلهية

للقديس يوحنا ذهبي الفم

تمت الترجمة عن كتاب
Jean Chrysostome
Sur La
Providence De Dieu
Sources Chrétiennes
N.79

الطـــبـعـــة: الأولى ٢٠٠٩
أســم الــكتاب: العناية الإلهية
إعداد: نشأت مرجان
مراجعة: أ. إبراهيم صموئيل
الـنـــاشـــر: دار النشر الأسقفية ٣٠ش شبرا - القاهرة - مصر.
ت:٢٥٧٥٥٣١٦(٠٢٠٢)- ٢٥٧٦٦٧٠٢(٠٢٠٢).
الــبريد الالكتروني:eph_egypt2000@yahoo.com
المــوقع الالكتروني: www.darelnashr.com
تصــميم غـــلاف:سيلفر ستار
المـــطبــعــة:الدولية للطباعة ت: ٢٦٦٣٠٣٢٨
رقــم الإيـــداع:٢٤١٤١/ ٠٨
الــتــرقــيم الدولى: 977-5884-89-6

المحتويات

مقدمة عن الكتاب

ترتبط تأملات القديس يوحنا ذهبي الفم عن موضوع العناية الإلهية ارتباطاً وثيقاً برسائله إلي الشماسة أوليمبيا، ففي الرسالة السابعة عشرة وهي آخر ما لدينا من رسائل موجهة منه إليها، يوضح القديس يوحنا ذهبي الفم فكرته بهذه الكلمات [لقد أرسلت إليك ما كتبته حديثاً عن موضوع «لا أحد يستطيع أن يؤذي من لم يؤذ نفسه» والنص الذي أرسله الآن إليك يسير على نفس المنوال من الجهاد، فطالعيه بدون توقف، وإن كنتِ في صحة جيدة اقرأيه بصوت عالٍ، لأن هذا سيكون دواءً شافياً إن أردت.]

من المحتمل أن ذهبي الفم كتب هذه الرسالة في مطلع عام ٤٠٧م في القوقاز، أي بعد ثلاث سنوات من نفيه من القسطنطينية وخروجه في صحبة حرسٍ محملين بأوامر (مشددة) من الإمبراطورة أفدوكسيا بإساءة معاملته وإنهاك صحته في الرحلة حتى إلى الموت. ورغم المعاملة السيئة التي لاقاها من الجنود قساة القلب ومن أسقف أحد البلاد الذي — بناءً على توصية من الحكام — اصطحب معه رهبان بلدته وأخرجه منها بمجرد وصوله إليها تحت جنح الظلام. ورغم مرضه وارتفاع درجة حِرارة جسده المنهوك، ورغم سوء الأحوال الجوية التي لم يعتد عليها، ورغم اعتلال صحته جداً، إلا أنه لم يكف عن تقديم الشكر لله، بل كان دائماً يعزي أحباءه وتلاميذه وفي مقدمتهم الشماسة أوليمبيا التي كانت من أوفى بناته الروحيات.

وبسبب خوفها الشديد عليه وحزنها لفراقه ولعلمها باعتلال صحته نتيجة لسوء المعاملة . . . أرسل لها هذه التأملات الممتعة عن عناية الله التي تحيط بنا وترعانا وتدبر كل ما يختص بحياتنا، إذ لا شيء يحدث لنا دون أن يمر على عناية الله الذي يزن هذه الأحداث بموازينه الفائقة الإدراك بالنسبة لنا. وإن كلمات بولس الرسول: «كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله» هي النور الذي ينير طريقنا وسط ظلمات طريق الحياة. الرب قادر أن يجعل هذا الكتاب سبب بركة وعزاء لكل من يطالعه ببركة الصوم الأربعيني المقدس وببركة القديس يوحنا ذهبي الفم. آمين.

ملاحظة: تم الاستعانة بكُتيب العناية الإلهية للقديس يوحنا ذهبي الفم الصادر عن كنيسة مار جرجس باسبورتنج والذي أورد تلخيص ومقتطفات فقط من الأربعة عشر فصلاً الأولى في هذا الكتاب. ....الصوم الأربعيني لعام ١٩٩٤م.

مقدمة الكتاب

للقديس يوحنا ذهبي الفم

ممن هو بين طغمة القديسين؛ يوحنا أبينا رئيس أساقفة القسطنطينية...إلى من عثروا من المظالم والمطاردات وسوء المعاملة من الناس ومن كهنة كثيرين،نكتب عن العناية الإلهية الفائقة الإدراك.

١ – عندما يريد الأطباء معالجة المصابين بالحمى أو من يعانون أي مرض آخر، فإنهم يسعون أولاً إلى رؤية المرضى أنفسهم، لأنهم لو ظلوا بعيدين عنهم فلن يكون بمقدورهم أن يقدموا ما في وسعهم أن يقدموه، إذ أن فن الطب يستلزم معاينة الأمراض على الطبيعة.

٢ – وعلى العكس فنحن — الذين نعاني من مرض أو مرضين، بل كل من يعانون من العثرة[1] على مدى العالم كله، لا نحتاج لشيء من هذا، إذ أنه ليس مطلوباً منا الذهاب لأحد ممن هم مصابون بهذا المرض أو التعرف على مدى انتشار المرض ولا حتى مطلوباً أن نسعى لرؤية من هم في صحة سيئة. نحن لن نستعمل أدوات (جراحية) ولن نكلف من هم مرضى أن يشتروا ما يستلزم العناية بهم (ومعالجتهم).

٣ – حتى لو كان هؤلاء المرضى غير معروفين لنا، ولو كانوا يقيمون في أقصى الأرض وفي وسط البراري، وقابعين في قاع البؤس، وفقراء بالدرجة التي ينقصهم القوت الضروري، فلا شيء من هذا يمنعنا من العناية بهم.نحن الذين في موضع منفرد (أي معزول وبعيد)، وبدون أدوات (جراحية)، وبدون أدوية أو طعام أو شراب أو مال، أو بدون (الحاجة إلى) سفر طويل... سنطرد هذا المرض.

٤ – كيف، وبأي وسيلة؟ بإعداد ترياق(دواء) الكلمة الذي هو ناجح لكل المرضى، ومن باب أولى لكل من ذكرناهم ، لأن الكلمة (الإلهية) ستغذي أفضل من الخبز، وتقيم أفضل من أي علاج، وتكوي بقوة أكثر من النار دون أن تثير أي ألم.

١ – نقصد بمرض العثرة، التعثر في إدراك عناية الله ومحبته لنا عندما تحيط بنا نار التجارب وتكتوي بلهيبها فنظن خطأ أن الله قد نسينا أو تخلى عنا

وتكبخ الأمواج المسـمومة للأفكار المنحرفة٢،إن (الكلمة) أكثر حدة من السيف، فهي تبتر الأجزاء المصابة دون ألم، وبعملها هذا لا تكلف أية نفقة ولا تزيد الفقير فقراً. إذ قد أعددنا هذا الترياق، فنحن نرسـله للجميع. وأنا أعلم أن الكل سيستفيد من هذا العلاج، بشرط التمسك بكلماتنا بانتباه وإرادة حسنة.

٢- إن الهرطقة ليست هي ثمرة للعقل بل هي ثمرة لسوء استخدام الإنسان للمنطق (والتفكير السليم).

الفصل الأول

ينبغي ذكر سبب من أين تتولد العثرة

١ – لأنه فيما يختص بالجسد، فإن معرفة سبب مرضه هو في المعتاد عون ليس بقليل للمريض، بل هو أمر فعال جداً ويساهم في شفائه، لأنه ليس فقط سيفلت من قبضة المرض الذي أصابه بعد معرفته للسبب، بل أيضاً لن يتعرض للمرض مرة أخرى، لأنه علم السبب الذي لأجله وقع فريسة للمرض في المرة السابقة، وسيتحفظ منه فيما بعد.فلنشرح نحن أيضاً أولاً لمن عانوا مثل هذه الآلام، من أين أتاهم مرض العثرة.

٢ – في الواقع أنهم لو تعرفوا على علّته واهتموا بالوقاية منه سيفلتون من هذا المرض، ليس فقط الآن بل دائماً، ومن أمراض أخرى كثيرة. هكذا طبيعة هذا العلاج أنه يشفي في الحاضر ويحصن ضد كل الأمراض في المستقبل.

٣ – لأن العثرة لا يسقط تحتها الضعفاء لعلة أو علتين أو ثلاث، بل توجد علل كثيرة تجعل الضعفاء يسقطون في العثرة. وكلمتنا تهدف إلى تحرير من كانوا ضحايا لهذه البلايا بشرط أنهم على الأقل – كما سبق أن ذكرت منذ قليل – يريدون السماع ويضعوا في اعتبارهم النصائح المعطاة لهم.

٤ – إن هذا الدواء قد أعددته، ليس فقط بالرجوع إلى الكتاب المقدس، بل أيضاً من الأحداث التي تتم أثناء الحياة الحاضرة ولا تتوقف عن الحدوث، بحيث أن مَنْ هم غير مرتبطين بالكتاب تكون هذه الأحداث وسيلة متاحة لهم ليقوّموا خطأهم إذا أرادوا ذلك.

٥ – لأنني لن أكف عن تكرار القول: إنه من المستحيل فرض هذا العلاج بالإجبار وبالقوة عندما يرفضه المريض ولا يقبل التعاليم الإلهية، إذ أن الشفاء الآتي من هذه التعاليم لهو أعظم جداً من الدروس التي نستوعبها من الأحداث التي تتم في حياتنا.

٦- لأنه ينبغي التيقن أن الإعلان الآتي من الله هو جدير بالتصديق أكثر من الأحداث المرئية.
أما لماذا تنتظرهم – من لا يريدون أن يقوّموا أنفسهم – عقوبة صارمة جداً، فهذا لأنه مع كونهم أخذوا الكتب المقدسة لم يجنوا منها أية منفعة، بينما منفعتهم كامنة فيها. فلكي لا يكونوا ضحايا لهذه العقوبة فلنبدأ الآن في تقويمهم بأن نشرح لهم أولاً سبب هذا المرض.

الفصل الثاني

محاولة الاستفسار والاجتهاد في فحص

حكمة الله التي لا تُسبر،هو أمرخطيروممتلئ طياشة.

١ – فما هو سـبب هذا الخطب (الشر) العظيم؟ إنه الفكر المتطفل والفضولي، إنها الرغبة في معرفة سـبب كل الأحداث (التي تحل بنا)، ومحاولة الدخول في نزاع مع عناية الله غير المدركة وغير الموصوفة؛ تلك العناية الفائقة لكل فحص واستقصاء. ومع هذا لا يخجل الإنسان من هذ الموقف الفضولي المملوء تهوراً.

٢ – تُرى من فاق بولس في حكمته؟ أخبرني ألم يكن إناءً مختاراً؟ ألم يأخذ نعمة الروح الفائقة غير المنطوق بها؟ ألم يتكلم المسيح فيّه؟ ألم يكشف الله له عن أمور لا يُنطق بها؟ ألم يسمع ما لا يحق لإنسان أن ينطق به؟ ألم يُختطف إلى الفردوس وارتفع إلى السماء الثالثة؟

٣ – ألم يجوب البر والبحر يجذب البرابرة (أي الوثنيين) ليصيروا مسيحيين؟ ألم يمتلك قدرات كثيرة ومتنوعة للروح؟ ألم يؤسـس النظام (والترتيب الحسن) لدى شعوب ومدن كثيرة ؟ ألم يضع الله بين يديه المسكونة كلها وسلّمها له؟

ومـع هذا كله فإن هذا الرجل بعظمته وحكمته وقوته وامتلائه بالروح – إذ خصه الله بهذه الامتيازات – عندما يتأمل في عناية الله، لا في كل جوانبها بل في جانب واحد منها، اسمع كيف يُصاب بالدهشـة، كيف يأخذه الدوار، كيف يتراجع سريعاً خاضعاً أمام (سمو الله وتدبيره) الفائق الإدراك.

٤ – فإنه لم يبحث عن عناية الله الملائكة ولا رؤسـاء الملائكة أو الشاروبيم والسيرافيم وكل الطغمات غير المنظورة، ولا عنايته بالشمس والقمر والسماء والأرض والبحر، ولا في سهره على الجنس البشـري بأكمله واهتمامه بالحيوانات غير العاقلة والزروع والعشب والأهوية والينابيع والأنهار، لا عن ولادتها ونموها وقوتها بموجب الطبيعة ولا عن أي شيء آخر شبيه.

٥- لكنه تناول عناية الله الخاصة باليهود واليونانيين، وأفاض في بحث هذه النقطة وشرح كيف دعا الله الأمم ورفض اليهود ثم تكلم عن الشفقة التي أتم بها الخلاص لهؤلاء وأولئك.

٦- وحينما أدرك هذا، اكتشف الرسول أنه أمام محيط واسع، وإذ حاول فحص أعماق هذه العناية أصيب بالدوار أمام استحالة تفسير عملها، وأخذته الدهشة والذهول أمام عناية الله غير المحدودة أو الموصوفة أو المفحوصة أو المدركة، فتراجع في مهابة متعجباً وهو يقول: «**يا لعُمق غنى الله وحكمته وعلمه!**» (رو١١: ٣٣).

٧- لقد وضح بعد ذلك كيف تلامس مع أعماقها دون أن يفلح في استقصائها، فقال«**ما أبعد أحْكَامَهُ عَنِ الْفَحْصِ وطُرُقَهُ عَنِ الاسْتِقْصَاء!**» (رو١١:٣٣). إنه لم يقل أن أحكامه بعيدة عن الفحص فحسب بل وبعيدة أيضا عن الاستقصاء. ليس فقط لا يقدر الإنسان على فهمها، بل ولا حتى أن يبدأ في استقصائها. يستحيل عليه أن يدرك غايتها أو حتى يكتشف كيف بدأ تخطيطها!.

٨- وإذ قال «ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء» أنهى حديثه -- وقد امتلأ تعجبا وانذهالاً -- بأنشودة شكر قال فيها: «**لأنْ مَنْ عَرَفَ فِكْرَ الرَّبِّ؟ أوْ مَنْ صَارَ لَهُ مُشيرا؟ أوْ مَنْ سَبَقَ فأعْطَاهُ فيُكَافَأ؟**». **لأنَّ منْهُ وبِهِ ولَهُ كُلَّ الأشْيَاءِ. لَهُ الْمَجْدُ إلى الأبدِ. آمِينَ.** (رو١١:٣٤-٣٦).

٩- هذا هو ما يريد أن يقوله بولس الرسول: إنه ينبوع كل الخيرات ومصدرها، ليس في حاجة إلى شريك أو مشير، لا يستعير من أحد قدرة المعرفة أو الذكاء المتوقد، فهو يعمل ويتم كل العجائب، وهو نفسه بدء كل الخيرات وأساسها وموجدها. هو نفسه الخالق، وهو نفسه الذي دعى غير الموجود إلى الوجود، يدبر ويحفظ كل شيء حسب إرادته!

١٠- «لأنَّ منْهُ وَبهِ ولَهُ كُلَّ الأشْيَاءِ». (رو١١:٣٦).

هذه كلمات من يريد أن يظهر أن الله نفسه هو خالق كل الكائنات ومبدعها، مدبر حياتها وحافظها. وفي موضع آخر يتحدث بولس الرسول عن النعمة الموهوبة لنا فيقول:

«**فشكرا لله على عطيته التي لا يُعبَّر عنها**» (**٢كو٩:١٥**). وهو يظهر أن سلام الله المعطى لنا، ليس فقط فائق على كل نطق وكل وصف، بل ويتخطى كل عقل. لهذا السبب قال:

«وسلامُ الله الذي يَفوقُ كُلَّ عَقْلٍ يحفظُ قُلوبَكُمْ وأفْكَارَكُمْ في المسيح يسوع». (في٤:٧).

١١ – فإن كان عمق غــنى الله وحكمته وعلمه بلا حدود، وإن كانت أحكامه بعيدة عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء، وإن كانت مواهبه لا يُنطق بها، وسلامه يفوق عقلي وعقلك وعقل كل أحد، بل وعقلي بطرس وبولس، وفهم رؤســاء الكهنة وكل الطغمات السماوية، أخبرني أي عذر لك في محاولتك الغبية المملوءة جنوناً، لكي تتفهم ما لا يمكن إدراكه، محاسباً أعمال عناية الله؟!

١٢ – إن كان بولس الذي أدرك الإلهيات بعمق وامتلأ رجاءً صادقاً غير منطوق به وغمرته كل هذه المواهب، نجده يتراجــع. وإن كان قد ارتفع فوق حدود طاقته لعله يفهم فلم يقدر حتى أن يدرك مبادئ تدابير الله – لأن هذا محال – أفلا يُحسب ذاك الذي يريد السير في طريق مناقض لترتيب العناية الإلهية أشقى الجميع وأكثرهم جنوناً؟!

١٣ – في الواقع إن بولس لم يكتف بهذا، بل عندما تعرض لمعرفة الأمور الإلهية في رسالته إلى أهل كورنثوس أظهر كيف – ولو أننا عرفنا الكثير – أن فإن معرفتنا محدودة وفي غاية الضآلة. وعبّر عن هذا على وجه التقريب بهذه الكلمات: «**فَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَظُنُّ أَنَّهُ يَعْرِفُ شَيْئاً فَإِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ شَيْئاً بَعْدُ كَمَا يَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ!**» (**١كو٨: ٢**).

لقد أكد لنا أننا الآن نعرف بعض المعرفة، أما الجانب الأعظم منها فسنعرفه في الدهر الآتي:

«**لأَنَّنَا نَعْلَــمُ بَعْضَ الْعِلْمِ،وَنَتَنَبَّأُ بَعْضَ التَّنَبُّؤِ. وَلَكِنْ مَتَى جَاءَ الْكَامِلُ فَحِينَئِذٍ يُبْطَلُ مَا هُوَ بَعْضٌ**» (**١كو١٣: ٩-١٠**).

١٤ – ولم يكتــف بولس بهذا، بل عندما أراد أن يوضح الفارق بين معرفتنا هنا ومعرفتنا في الحياة الأخرى لجأ إلى هــذا التصوير: «**لَمَّا كُنْتُ طِفْلاً كَطِفْلٍ كُنْتُ أَتَكَلَّمُ، وَكَطِفْلٍ كُنْتُ أَفْطَنُ، وَكَطِفْلٍ كُنْتُ أَفْتَكِرُ. وَلَكِنْ لَمَّا صِرْتُ رَجُلاً أَبْطَلْتُ مَا لِلطِّفْلِ. ١٢ فَإِنَّنَا نَنْظُرُ الآنَ فِي مِرْآةٍ فِــي لُغْزٍ، لَكِنْ حِينَئِذٍ وَجْهاً لِوَجْهٍ. الآنَ أَعْرِفُ بَعْــضَ الْمَعْرِفَةِ، لَكِنْ حِينَئِذٍ سَــأَعْرِفُ كَمَا عُرِفْتُ**» (**١كو١٣: ١١-١٢**).

١٥ – هل لمست مدى الفارق بينهما؟ إنه كاختلاف معرفة الطفل الصغير عن معرفة الرجل الناضج، وكاختلاف الرؤية في مرآة عن التطلع وجهاً لوجه، إذ تشير المرآة إلى التعبير الغامض، أو بطريقة أخرى أقل وضوحاً من رؤية الأشياء على حقيقتها. فلماذا هذه الحماقة وهذا الجنون في أن نجابه عبثاً وباطلاً الأشياء الممنوعة؟ لماذا إذن لا نصدق قول بولس:

«بَلْ مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ الَّذِي تُجَاوِبُ اللهَ؟ أَلَعَلَّ الْجِبْلَةَ تَقُولُ لِجَابِلِهَا: لِمَاذَا صَنَعْتَنِي هَكَذَا؟»(رو ٩: ٢٠).

١٦- تأمل كيف يليق بنا الخضوع لإرادة الله في صمت!. إنه بلا شك لا يقصد بقوله هذا أنه يود أن يفقدنا إرادتنا الحرة، حاشا! لكنه يؤكد أنه ينبغي على الباحث الالتزام بالصمت كالطين في يد الخزاف، لا يقاوم ولا يجادل. وقد ذكر الخزاف والطين ليذكّرنا بطبيعتنا، فإنهما في درجة واحدة من حيث وجودهما (لأن الخزاف هو أيضاً مخلوق من الطين).

١٧- ومع هـذا يخضع الطين للخزاف (رغم أنهما من نفس المـادة)، فأية مغفرة يترجاها الإنسان وهو يتجاسر مجادلاً إرادة الله جابله، مع أن الفارق بينه وبين الله الذي خلقه لا نهائي؟ أذكر أيها الإنسان مَنْ أنت – ألست طيناً وتراباً ورماداً؟ ألست بخاراً (حرفياً دخان)؟ ألست عشباً؟ ألست زهرة عشب؟

١٨- إن الأنبياء يذكرون دائماً كل هذه التشـبيهات ويتسابقون في أن يصوروا قدام عيوننا وضاعة طبيعتنا. أما الله الذي تود أن تُخضعه لفضولك الطائش فهو لا يخضع للموت أو التغيير. إنه سـرمدي، لا بداية له ولا نهاية، غير مدرك، فائق لكل فهم وكل منطق، غير موصوف ولا منظور!

هذه الصفات لا نسـتطيع إدراكها أنا وأنت، أو حتى الرسـل والأنبياء، بل ولا القوات السـماوية - رغم طهارتها – وهي قوات غير منظورة وغير جسـدية وتحيا على الدوام في السماء (في حضرته).

الفصل الثالث

اللاهوت غير مُدرك،ليس فقط لنا،

بل وللقوات السماوية أيضاً

١- عندما تسمع عن السيرافيم أنهم يطيرون حول العرش في سموه ورفعته، يغطون وجوههم بجناحين ويسترون أرجلهم باثنين ويصيحون بصوت مملوء رعدة، لا تظن أن لهم ريشاً وأرجلا وأجنحة.

٢- لأن هذه القوات غير مرئية، لكنه بفضل هذه التشبيهات تفكر في أن من هو جالس على العرش غير مُدرك ولا يمكن الدنو منه.

حقاً إن الله حتى بالنسبة لهذه الطغمات غير مُدرك ولا يقدرون على الدنو منه. لهذا فهو يتنازل ليظهر بالطريقة التي وردت في الرؤيا، إذ أن الله لا يحده مكان ولا يجلس على عرش.

٣- إنما جلوسه على العرش وإحاطته بالقوات السمائية، هي علامات من قبيل تنازله، وليس مجرد كونه جالساً. فهذه القوات لم تستطع رؤيته ولا حتى احتملت التطلع إلى بهاء نوره، فغطت أعينها بأجنحتها، ولم يعد لها إلا أن تسبح وترنم بتسابيح مملوءة مجداً ورعدة مقدسة، وبتراتيل عجيبة تشهد لقداسة ذلك الجالس على العرش.

٤- ألا تختبئ تحت الآكام يا من تمثل هذه الجسارة تريد أن تفحص عناية إله قوته لا توصف ولا يُعبّر عنها وغير مدركة للقوات السماوية؟

٥- لأن كل ما يختص به (أي بالآب) معروف وبتحديد (قاطع) فقط للابن وللروح القدس، وليس لأي أحد سواهما. وقد سعى يوحنا الإنجيلي إلى إفهامنا الحقيقة الأولى، وبولس الرسول الثانية.

إن ابــن الرعد الذي أحبه الرب جداً، والذي دل لقبه على سمو فضيلته والذي تمتع بالاتكاء على صدر الرب يقول: «الله لم يره أحد قط»، والرؤية هنا تعني المعرفة.

٦- «**اَلابْنُ الْوَحِيدُ الَّذِي هُوَ فِي حِضْنِ الآبِ هُوَ خَبَّرَ**»(يو١:١٨). والمسيح نفسه شرح هذا سابقاً في موضع آخر عندما تحادث مع اليهود فقال:

«**لَيْسَ أَنَّ أَحَداً رَأَى الآبَ إِلاَّ الَّذِي مِنَ اللهِ. هَذَا قَدْ رَأَى الآبَ**»(يو٦:٤٦).

٧- وعندما أراد الإناء المختار (بولس) أن يتحدث عن مقاصد الله ويشير إلى الأسرار كما عرفها قال: «**بَلْ نَتَكَلَّمُ بِحِكْمَةِ اللهِ فِي سِرٍّ: الْحِكْمَةِ الْمَكْتُومَةِ الَّتِي سَبَقَ اللهُ فَعَيَّنَهَا قَبْلَ الدُّهُورِ لِمَجْدِنَا، ٨الَّتِي لَمْ يَعْلَمْهَا أَحَدٌ مِنْ عُظَمَاءِ هَذَا الدَّهْرِ - لأَنْ لَوْ عَرَفُوا لَمَا صَلَبُوا رَبَّ الْمَجْدِ. ٩بَلْ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ،وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ:مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ**»(١كو٢:٧-٩).

٨- إذاً كيف عرفنا حكمة الله يا بولس ومن كشفها لنا؟ ومن أوضح لنا الأمور التي لم ترها عين و لم تسمع بها أذن و لم تخطر على بال إنسان؟

٩- أخبرنا، من هو الذي وهب لنا هذه المعرفة العجيبة؟

«**فَأَعْلَنَهُ اللهُ لَنَا نَحْنُ بِرُوحِهِ**»(١كو٢: ١٠).

ولئلا يظن أحد أن الروح القدس يعرف فقط ما يكشفه الله لنا بواسطة ملائكته، وأنه لا يملك قوة المعرفة، أضاف بولس قوله: «**فَأَعْلَنَهُ اللهُ لَنَا نَحْنُ بِرُوحِهِ. لأَنَّ الرُّوحَ يَفْحَصُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَعْمَاقَ اللهِ. لأَنْ مَنْ مِنَ النَّاسِ يَعْرِفُ أُمُورَ الإِنْسَانِ إِلاَّ رُوحُ الإِنْسَانِ الَّذِي فِيهِ؟ هَكَذَا أَيْضاً أُمُورُ اللهِ لاَ يَعْرِفُهَا أَحَدٌ إِلاَّ رُوحُ اللهِ**».(١كو٢:١٠-١١).

هذه الكلمات تعني أنه كما يعرف روح الإنسان ما يخصه بدقة، هكذا يعرف روح الله المعرفة الإلهية الكاملة بدقة لا يُعبّر عنها.

١٠- بقوله أن أمور الله لا يعرفها إلا روح الله، استبعد عن هذه المعرفة الدقيقة ليس فقط البشر، بل أيضاً كل المخلوقات السماوية. من أين هذه النصائح الحكيمة: «لا تطلب ما يعييك نيله، ولا تبحث عما يتجاوز قدرتك، لكن ما أمرك الله به، فيه تتأمل ولا ترغب في استقصاء أعماله التي تتجاوز عقلك البشري» (بن سيراخ ٣:٢٢ بحسب النص السبعيني).

١١- هذا القول يعني أنه يليق بك ألا تنسب معرفتك لذاتك، فلن تكفيك الطبيعة لمعرفة كل الأشياء، إنما أنت أخذت من فوق معرفة أكثر الأمور (التي عرفتها)، إذ هي تفوق إدراكك.

لماذا تحاول اســتقصاء الأمور العميقة بقوتك الذاتيــة، مع أن أغلبها يفوق قوة تفكيرك التي وهبها الله لك؟

١٢- ألعل بولس كان يحاول الإشارة إليك حين قال: «**لأَنَّهُ مَنْ يُمَيِّزُكَ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ لَكَ لَمْ تَأْخُذْهُ؟ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَخَذْتَ، فَلِمَاذَا تَفْتَخِرُ كَأَنَّكَ لَمْ تَأْخُذْ؟**» (**١ كو ٤: ٧**).

إذاً لتهــرب من حب الجدال واقبل هذه النصيحة المملوءة حكمة: «لا تقل ما هذا؟ ولماذا حدث هذا؟ لأن كل الأشياء قد خُلقت لاحتياجها[٣]» (بن سيراخ ٣٩: ٢١).

٣- أي أن الله خلق كل شيء لاحتياج البشر في الانتفاع منه.

الفصل الرابع

موسى النبي قطع الفضول الخطير بكلمة (واحدة) في بداية الكتاب المقدس.

١ – لهذا السبب عندما أكمل الله الخليقة كلها وزّينها بالجمال، فمع أن هذا العمل المتناسق غير العادي يصيب من يراه بذهول عظيم، سبق الله فوجد أن كثير من الحمقى والمخبولين قد أعدوا أنفسهم لمهاجمة الأشياء المخلوقة، لذلك دحض رأيهم الوقح بكلمة واحدة فقال: «**وَرَأى الله كُلَ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِدّاً**» (**تك١ : ٣١**).

٢ – وعن بين الأشياء التي رآها الله (حسنة) ليس فقط النور بل الظلمة (أيضاً)، وليس فقط الثمار بل الأشواك، وليس فقط الأشجار المزروعة بل الأشجار البرية، وليس فقط السهول المنبسطة بل الجبال والوديان والشقوق، وليس فقط البشر بل أيضاً الحيّات السامة، وليس فقط الأسماك بل أيضاً الحيتان البحرية، وليس فقط الأمواج الهادئة، بل أيضاً البحر الذي يرفض كل ملاحة فيه (عندما يهيج).

٣ – ليس فقط الشمس والقمر والنجوم، بل أيضاً الرعد والبرق والأعاصير، ليس فقط الهواء العليل بل أيضاً الزوابع. ليس فقط الحمام والطيور المغردة، بل أيضاً النسور والصقور والحيوانات الأخرى التي تفترس البشر، ليس فقط الغنم والبقر بل أيضاً الذئاب والفهود والأسود، ليس فقط الأيائل والأرانب البرية والغزلان، بل أيضاً العقارب والحيّات. وبين الأعشاب ليس فقط النباتات التي تجلب الشفاء، بل أيضاً النباتات السامة، وكثير من هذه الخلائق صارت معثرة وجلبت هرطقات.

٤ – أما موسى فقد أعلن أنه لما جاءت الخليقة إلى الوجود وتزينت بكل زينتها مجدّها الله (بمعنى أنه استحسنها). أقصد أنه مجدّ كل شيء منها على حدى، كما مجد الخليقة في مجموعها. بهذا لا يجسر أحد – مهما كان تهوره – أن يفكر في فحص باقي الأشياء المرئية.

٥- لهذا السـبب بعد أن قال: «ليكن نور» أضاف قوله: «**ورأى الله أن النور حسن**» (**تك١ : ٤**). بعد ذلك ولكي لا يطيل حديثه بتسمية كل الأشياء باسمها، عبّر بكلمة واحدة عن استحسانه للكل معاً فكرر القول: «**وَرَأَى اللهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِدّاً**» (**تك١ : ٣١**).

٦- هذا لا يعني أن الله اكتشف جمالها بعد خلقتها. كلا!

لأنه إن كان الفنان – وهو إنسان – يستطيع أن يدرك جمال عمل يديه قبل تنفيذه[٤]، فكم بالحري (الله) الحكمة الفائقة الذي بعث الحياة في الكل بإرادته وحده عرف روعة خليقته قبلما يخلقها.

٧- وما كان قد جاء بها إلى الوجود لو لم يكن قد سبق فعرفها. فلماذا إذاً هذه الكلمات؟ للسبب الذي ذكرته (من قبل).

أيضاً بعد أن سمعت النبي (موسى) يقول لك، إن الله رأى كل شيء (حسن) ومدحه، فلا تسعى لوضع محك آخر ولا لبرهان آخر (يدل) على عظمتها ولا تقل ما هو الحسن الذي فيها؟

في الواقع إن إعلان حكم خالقها ورأيه بحسنها لهو دليل مقنع أكثر من البرهان (على حسنها) المأخوذ من الأعمال ذاتها.

٨- لأجل هذا استخدم (موسى) طريقة كلام قاطعة ومبدئية بما فيه الكفاية. في الواقع لو أراد شخص أن يشتري أدوية دون أن يعرفها، فهو يطلب أولاً أن يراها الطبيب، وعندما يرى أن الطبيب قد استحسنها بعد أن عاينها، فإنه لا يعود يطلب دليلاً آخر على فاعليتها، بل إذ علم أن الطبيب قد تعرّف عليها واستحسنها فإنه يكتفي برأيه.

٩- كذلك موسى إذ أراد بتر كل فضول وقح من جانب الذين فيما بعد سيسخرون من الخلقة، أعلن وقال إن الله رأى كل الأشياء (التي خلقها) واستحسنها ووصفها بأنها حسنة وليس فقط «حسنة» بل وأيضاً «حسنة جداً».

٤- يُروى عن الفنان الإيطالي الشهير مايكل أنجلو أنه عندما مر على قطعة رخام خام – كانت محل استقباح من الناس لمنظرها المشوه – هتف عندما رآها لأول مرة لجمالها! فاندهش الناس وظنوه مخبولاً ولكن روعة تمثال الملاك الذي صنعه منها أزالت دهشة الناس!

١٠- إذاً لا تحاول البحث في أمور الخليقة باندفاع، فإن لديك شهادة عالية تعلن امتيازها (على كل شهادة أخرى). فإن لم تكتف بهذه الشهادة باحثاً في الخليقة بأفكار متضاربة وسط جو عاصف، فلن تتقدم في شيء، إنما تهيئ لنفسك فشلاً ذريعاً. لأنك ليس فقط لن تستطيع أن تجد تفاسير لكل الأشياء المخلوقة، بل وأيضاً ما قد تستحسنه من الخليقة الآن قد ترذله غداً، وذلك بسبب عقم تفكيرك.

١١- في الواقع إن فكر البشر ضعيف، وفي أغلب الأحيان ينجذب نحو اتجاهات متضاربة، وتتعارض وجهات كثير من الناس تجاه الخليقة الآن، فاليونانيون بسبب شدة إعجابهم غير اللائق بها صيّروها آلهة.

١٢- وعلى العكس فبين أتباع «ماني» وهراطقة آخرين، البعض يقول أنها ليست من صنع إله مُحب، والبعض الآخر بعد أن اقتطع منها جزءاً نسبوا للمادة أنها تتولد من تلقاء نفسها، وقرروا أنها لا تستحق أن تكون من عمل إله خلاّق. لذلك بادرت بالقول أنه عند استخدام المنطق والتفكير السقيم سنذم أشياء كثيرة من بينها أشياء مؤكد حسنها.

١٣- أي شئ في رأيك أكثر جمالاً من الشمس؟ ومع هذا فذلك الكوكب المضيء والجميل يؤذي عين المرضى، ويكلس الأرض بإرسال أشعته الحارقة، ويسبب الحمى للبعض، وكثيراً ما ييبس المحصول ويجعله عديم النفع ويجعل الأشجار عقيمة (وذلك عندما تأتي الريح اللافحة وقت التزهير فتسقط زهور شجر الزيتون والموالح وغيرها من الأشجار)، ويحول جزءاً من الأرض إلى منطقة لا نستطيع الإقامة فيها.

١٤- قل لي، هل نذم الشمس بسبب هذا؟ لا، بل إذ ندع جانباً التعليلات والإزعاج الذي تولده، فإننا نلتصق إلى الصخرة التي هي الكلمة القائلة: «**وَرَأَى اللهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِدّاً**» (**تك١: ٣١**).

إذاً فكل ما سبق أن أعددته(يا الله) هو حسن جداً ومفيد. وكما سبق أن أكدت، فإنه ينبغي الرجوع بدون توقف إلى هذه العبارة القائلة:

«**وَرَأَى اللهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِدّاً**» (**تك١: ٣١**).

١٥- لكن هل الانهماك في الاستكانة والضحك وحياة الملذات هو شيء حسن؟ بالتأكيد لا. اسمع سليمان -- وهو الذي اختبر حياة الفسق - وهو يقول «الذهاب إلى بيت النوح خير من الذهاب إلى بيت الوليمة» (جا٧: ٢)، وهل ينبغي أن نقول أن الليل ردئ باستخدامنا

لمنطق معارضينا (يقصد المانيين)؟

١٦- نعم، لكنه أيضاً مسـكّن للبلايا، ومبعد للهمـوم، ومخفف للأمراض، وهو هدنة من الأخطار والمخاوف. إنه ينعش الجسد، ويعيد القوة للذهن ويُريح الجسد المُتعب.

وهل المرض شر؟

نعم، لكن لأي سبب (غيره) تكلل لعازر؟

وهل الفقر شر أيضاً؟

إذاً لأي سبب (آخر) صار أيوب مشهوراً؟ أليس لكون البلايا كانت تلاحق بعضها البعض بلا توقف؟

١٧- وأيضاً لأي سـبب قد انتشرت أسماء الرسل؟ وما هو الطريق الذي يؤدي إلى الحياة؟ أليس هو الطريق الضيق والكرب؟ فلا تقل: لماذا هذا؟ وما الهدف من ذاك؟ لكن عندما يختص الأمـر بتدابير الله وأعماله، ينبغي كما أن الخزف يلزم الصمت أمام الخزاف، هكذا أنت أيضاً احفظ الصمت أمام الله الذي خلقك.

الفصل الخامس

ينبغي أن نصدق أن الله ساهر على كل الأشياء، ولمن يشكّوا في ذلك فإن برهان الخليقة هو أعظم دليل.

١ – فماذا – ألا تريد أيها القارئ – أن تقول «إنني أعلم جيداً وأؤمن أن الله يسهر على كل شيء؟»

بالتأكيد أنت تريد وتتمنى وترغب في هذا جداً، لكن ليس بأن تجتهد في فحص عنايته وبسؤالك أسئلة باطلة. فإن كنت تشك في عناية الله اسأل الأرض والسماء والشمس والقمر. اسأل الكائنات غير العاقلة والزروع والنباتات والأسماك التي لا تستطيع الكلام. اسأل الصخور والجبال والكثبان الرملية والتلال. اسأل الليل والنهار.

٢ – في الواقع إن عناية الله أوضح من الشمس وأشعتها. في كل مكان، في البراري والمدن العامرة، على الأرض وفي البحار، في كل موضع تذهب إليه ستعاين شهادة واضحة وكافية، شهادة قديمة وجديدة عن هذه العناية. في كل موضع ترتفع الأصوات مدوية بوضوح أعلى من أصوات البشر العاقلين تعلن لكل من يريد أن يسمع عن صلاح الله الساهر!.

٣ – وإذ أراد النبي أن يسجل قوة هذه الأصوات قال: «**فِي كُلِّ الأَرْضِ خَرَجَ مَنْطِقُهُمْ، وَإِلَى أَقْصَى الْمَسْكُونَةِ كَلِمَاتُهُمْ. جَعَلَ لِلشَّمْسِ مَسْكَناً فِيهَا**»(مز١٩: ٤). لغتنا نحن، لا يفهمها إلا أهل لساننا، أما الخليقة فتنطق بلغة تفهمها جميع الشعوب!

الفصل السادس

الحب الإلهي يفوق بلا نهاية كل حب (آخر).

١- لمن قد تهيأ حسناً، فإن الاستعلان الوحيد عن الله — حتى قبل البرهان المأخوذ من أعماله — يكفي لإظهار ليس فقط عنايته بنا، بل أيضاً حبه الشديد لنا. لأنه لا يسهر علينا وحسب، بل هو أيضاً يحبنا لأجل ذواتنا حباً بلا حدود، حباً مقدساً ملتهباً، حباً شديداً حقيقياً لا ينفصم ولا ينطفئ.

٢- ولكي يكشف لنا الكتاب المقدس عن هذا الحب قارنه بحب البشر، موضحاً حب الله الساهر وعنايته بنا بأمثلة كثيرة من الحب والبصيرة (الفطنة) والاهتمام (لدى لبشر)، لا لنقف عند حدود الأمثلة وإنما ليدفعنا ذلك أن نتعداها أثناء تأملنا لها. إنه لم يقدمها كبراهين كافية على محبته، بل كأشياء معلومة جيداً لمن يفهمونها، وكأمثلة قادرة أكثر من أي شيء آخر على إظهار حبه لنا.

٣- هذا ما أريد أن أقوله. إن بعض الذين تضايقوا مرة وتأوهوا قائلين:

«**قَدْ تَرَكَنِي الرَّبُّ وَسَيِّدِي نَسِيَنِي**»(إش٤٩: ١٤) ، يجاوبهم النبي أشعياء قائلاً: «**هَلْ تَنْسَى الْمَرْأَةُ رَضِيعَهَا فَلاَ تَرْحَمَ ابْنَ بَطْنِهَا؟ حَتَّى هؤُلاَءِ يَنْسَيْنَ، وَأَنَا لاَ أَنْسَاكَ**» (إش٤٩: ١٥). وكأنه يقول: يستحيل على الأم أن تنسى رضيعها فبالأولى لا ينسى الرب جنس البشر.

٤- بعد ذلك، لكي أجعلك تفهم أن النبي استخدم هذه المقارنة، ليس بقصد تشبيه حب الله لنا بحب الأم لثمرة بطنها، وإنما لأن حب الأم يفوق كل حب، غير أن حب الله حتماً أعظم منه، فإنه أضاف قوله: «**حَتَّى هؤُلاَءِ يَنْسَيْنَ، وَأَنَا لاَ أَنْسَاكَ**» (إش٤٩: ١٥).

٥- ها أنت تنظر كيف أن محبة الله تفوق محبة الأم لأولادها. ولكي تفهم أن هذا الحب يفوق جداً حنان الأم وحب الأب لأولادهما قال النبي داود : «**كَمَا يَتَرَأَّفُ الأَبُ عَلَى الْبَنِينَ يَتَرَأَّفُ الرَّبُّ عَلَى خَائِفِيهِ**»(مز١٠٣: ١٣). وهو يستخدم مرة أخرى مقارنة الحب هذه، عالماً تماماً أن محبة الله تفوق كل حب آخر.

٦- يظُهر رب الأنبياء وسيد الجميع أن حبه يفوق جداً قدر الحب الأبوي، وإن كان يوجد فرق (عظيم) بين النور والظلمة والخير والشر، فعظيمة أيضاً المسافة (الهوّة) التي تفصل بين صلاح الله وعنايته عن حنان الأب (البشري)، فاسمع ماذا يقول:

٧- «**أَمْ أَيُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ إِذَا سَأَلَهُ ابْنُهُ خُبْزاً يُعْطِيهِ حَجَراً؟ ١٠وَإِنْ سَأَلَهُ سَمَكَةً يُعْطِيهِ حَيَّةً؟ فَإِنْ كُنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ تَعْرِفُونَ أَنْ تُعْطُوا أَوْلاَدَكُمْ عَطَايَا جَيِّدَةً، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ أَبُوكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ يَهَبُ خَيْرَاتٍ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ**»(مت٧:٩-١١).

مُظهراً بهذا أنه بقدر اختلاف الخير عن الشر، هكذا تعلو محبة الله على محبة الآباء واهتمامهم بمصالح أولادهم.

٨- لقد أعطيت هذه الأمثلة، حتى إن حدث لي أن ذكرت شهادات أخرى عن الحب، لا تدع فكرك يتوقف عند القدر المُعطى من الأنبياء، بل باتباعك هذه القاعدة، فإن فكرك سيجتذبك بعيداً جداً فترى فيض الحب الإلهي الذي يفوق التعبير. لأن المعايير الطبيعية لا تكفي، لكن دعها جانباً وأشخص إلى العلا فهو يقدم أيضاً أمثلة أخرى.

٩- كما أن من يحب يريد أن يعطي دائماً أكبر عدد من الشهادات على حبه لمحبوبه، فهذا ما فعله الله أيضاً باستخدامه التشبيهات التي تصف المسافة من موضع لآخر، ليس أيضاً لمجرد أن تعتقد أن حبه شبيه له بالضبط، لكن لأن مقياس المسافات كان أكثر الأمثلة المُذكّرة (للذهن) ومعروف جيداً لمن يسمعونه.

١٠- لذلك يقول الله بفم داود: «**لأَنَّهُ مِثْلُ ارْتِفَاعِ السَّمَاوَاتِ فَوْقَ الأَرْضِ قَوِيَتْ رَحْمَتُهُ عَلَى خَائِفِيهِ**»(مز١٠٣:١١)، وأيضاً «**كَبُعْدِ الْمَشْرِقِ مِنَ الْمَغْرِبِ أَبْعَدَ عَنَّا مَعَاصِيَنَا**»(مز١٠٣:١٢)، ويقول بفم إشعياء: «**لأَنَّ أَفْكَارِي لَيْسَتْ أَفْكَارَكُمْ وَلاَ طُرُقُكُمْ طُرُقِي، يَقُولُ الرَّبُّ**»(إش٥٥:٨-٩).

إنه قال هذا بعد أن تحدث قبل ذلك عن مغفرة الخطايا وقال:

«سأغفر لكم تعدياتكم تماماً» (إش٥٥:٧ بحسب النص السبعيني).

١١- إنه قد أظهر هكذا قدر غفرانه بإعطائه هذه الأمثلة. و لم يكتف بهذه التشبيهات وحسب، بل ومضى إلى تشبيه آخر أكثر بداثية فهو يقول في سفر هوشع:

«**كَيْفَ أَجْعَلُكَ يَا أَفْرَايِمُ، أُصَيِّرُكَ يَا إِسْرَائِيلُ؟! كَيْفَ أَجْعَلُكَ كَأَدْمَةَ، أَصْنَعُكَ كَصَبُوِييمَ؟! قَدِ انْقَلَبَ عَلَيَّ قَلْبِي. اضْطَرَمَتْ مَرَاحِمِي جَمِيعاً!**» (هو ١١: ٨).

١٢- وما يريد أن يقوله هو هذا: إنني لا احتمل ولا حتى كلمة انتهار (لكم).

إنه عبّر (عن مشاعره) بطريقة بشرية، ليس لكي يخطر في بالك شيء بشري من جهته، حاشا لله، لكن لكي تتخيل بطريقة التعبير البسيطة ما هو الحب الجدير بالله: إنه حب حقيقي لا ينحل.

١٣- كما أن الإنسان الذي يحب بجنون ينتقي كلماته (بعناية) حتى لا يحزن محبوبته، كذلك يقول الرب: «ما إن تكلمت حتى ندمت على كلامي... انقلب قلبي عليّ».

إن الله لم يستنكف أن يستخدم هذه الصور التشبيهية التي لا تليق به لإظهار حبه، الأمر الذي هو بالضبط يختص بمن يحب.

١٤- إن الله لم يكتف بهذا، بل ذهب إلى أبعد من هذا مرة أخرى بتقديمه مثالاً آخراً يخترق أعمق الأمور قائلاً: «**لأَنَّهُ كَمَا يَتَزَوَّجُ الشَّابُّ عَذْرَاءَ يَتَزَوَّجُكِ بَنُوكِ، وَكَفَرَحِ الْعَرِيسِ بِالْعَرُوسِ يَفْرَحُ بِكِ إِلَهُكِ**»(إش٦٢: ٥).

فالحب يكون في أوجه عند البداية بين من يحبون (أي بين العروسين) وهو تكلم هكذا ليس لكي تفكر في شيء بشري – فأنا لن أتوقف عن تكرار هذا – إنما لكي بعد هذه الكلمات تلمس شدة التهاب محبته الحقيقية الفائضة.

١٥- بعد ذلك، عندما قال أنه يحب كأب وأكثر من أب، وكأم وأكثر من أم، وكعريس وأكثر من عريس، وأيضاً كعظم المسافة التي بين الأرض والسماء وأعظم من هذا أيضاً كبعد المشرق عن المغرب، بل وأكثر من هذا فإنه لم يتوقف هنا في مقارناته، بل مضى إلى حد اتخاذ مثال أكثر وضاعة أيضاً.

١٦- في الواقع إن يونان بعد هروبه ومصالحة شعب نينوى مع الله، تضايق لأن تهديداته لم تتم، وانفعل متألماً بطريقة بشرية (لا تليق بنبي) وكان ممتلئاً حزناً. فأمر الله الأرض أن تنبت يقطينة ليونان تحمي رأسه، ثم أمر الشمس أن تزيد من حرارتها فتحرقها، فتعزى يونان من اليقطينة التي أراحه الله بها من حرارة الشمس، ثم اغتم لذبولها. فلما رآه الله من ناحية تعزى ومن الأخرى تضايق، اسمع ما قاله له الله:

١٧ - ١٠فقال الرَّبُّ: «**أَنْتَ شَفقْتَ عَلَى الْيَقْطِينَةِ الَّتِي لَمْ تَتْعَبْ فِيهَا وَلاَ رَبَّيْتَهَا، الَّتِي بِنْتَ لَيْلَةٍ كَانَتْ وَبِنْتَ لَيْلَةٍ هَلَكَتْ. ١١أَفَلاَ أَشْفَقُ أَنَا عَلَى نِينَوَى الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يُوجَدُ فِيهَا أَكْثَرُ مِنِ اثْنَتَيْ عَشَرَةَ رِبْوَةً مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ لاَ يَعْرِفُونَ يَمِينَهُمْ مِنْ شِمَالِهِمْ، وَبَهَائِمُ كَثِيرَةٌ!**» (**يون٤: ١٠-١١**).

١٨ - وهذا ما أراد أن يقوله: «ألم تفرح بظل اليقطينة، فكم بالحري ينبغي أن أفرح أنا بخلاص أهل نينوى؟! إن هلاك اليقطينة لا يؤلمك بقدر ألمي على هلاك هؤلاء الناس، ولذلك كان موقم مضاداً لفكري».

انظر كيف مضى الله هنا أيضاً إلى أبعد من المقارنة. إنه في الواقع لم يقل: «**أَنْتَ شَفقْتَ عَلَى الْيَقْطِينَةِ**» ثم توقف عند هذا، بل أضاف قوله: «**الَّتِي لَمْ تَتْعَبْ فِيهَا وَلاَ رَبَّيْتَهَا**» (**يون٤: ١٠**).

١٩ - بما أن البستاني يحب من النباتات التي يتعهدها تلك التي تعب فيها بالأكثر، فإن الله إذ أراد أن يبين أنه يحب البشر وأنه يحبهم بهذا النوع من الحب أضاف قول ما معناه: «إن كنت أنت تدافع بقوة عن عمل غيرك الذي لم تتعب فيه، فكم بالأولى يليق بي الدفاع عن عمل يداي!». ثم يخفف من حدة الاتهام الموجه ضدهم بقوله: « لاَ يَعْرِفُونَ يَمِينَهُمْ مِنْ شِمَالِهِمْ » ومظهراً بهذا أنهم أخطأوا عن جهل وليس عن خبث، وهذا ما أظهرته توبتهم الخالصة.

٢٠ - ومن يئنون بحجة أنهم متروكون يوبخهم قائلاً:

«**اسْأَلُونِي عَنِ الآتِيَاتِ. مِنْ جِهَةِ بَنِيَّ وَمِنْ جِهَةِ عَمَلِ يَدِي أَوْصُونِي**»(إش٤٥: ١١)، وما يريد قوله هو هذا: من يذكر الأب بابنه أو يحثه ليفكر فيه أو من يذكر عامل أو فنان ألاّ يدع عمله يتلف؟ هكذا عند البشر فإن الطبيعة والفن يكفيان لكم لإعطائكم الدليل على الاهتمام، لكن أنتم تظنون أنني احتجت لمن يدعوني للاهتمام بأولادي وأعمالي.

٢١ - وهو لا يقول هذا ليمنعهم من الصلاة وإنما لكي يعرفوا أنهم قبل أن يصلوا يعمل الرب ما يحسن في عينيه، لكنه يريدنا أن نصلي لأن في الصلاة نفع عظيم. هاأنت ترى بهذه الأمثلة كيف أن براهين عناية الله أكثر وضوحاً وأسطع من الشمس.

٢٢ - وهذا مؤكد، فإنه ذكر مثال الأب والأم والعريس والبعد بين السماء والأرض وبين المشرق والمغرب وشبّه نفسه بالبستاني الذي يتعب من أجل عمل يدي وبالمحب الولهان الذي

يخشـــى (حرفياً يحزن) لئلا يحزن محبوبته ولو بكلمة،... لقد أظهر الله بكل هذه الأمثلة أن حبه يختلف عن كل هذه الأنواع من الحب كاختلاف الخير عن الشر.

الفصل السابع

برهان عناية الله من الخليقة

١ – إن الأدلة الســـابقة فيها الكفاية بالنســـبة للقلوب المستعدة، لكن إذ قد تمرغ البعض في الوحل؛ وهم فئة يصعب اقتيادها وإقناعها ومتعلقين بجسدهم (وبالترابيات)، لذلك فلنُظهر لهم عناية الله خلال أعماله قدر ما نستطيع، إذ يصعب علينا حصرها ولو في أقل جانب من جوانبها. إن عنايته لا نهائية ومتلألئة عبر الأعمـــال الصغيرة والعظيمة، والظاهرة والخفية. لكننا نكتفي بالبحث في الأمور الظاهرة لنعطي الدليل عليها.

٢ – إن هذه الخليقة الجميلة المتناســـقة لم يصنعها الله لآخر ســـواك. من أجلك أبدعها بهذا الجمال وتلك العظمة والتنوع والغنى، وهي مؤهلة لتلبية كل الاحتياجات ونافعة ومحسنة بكل المقاييس قادرة على تغذية الجســـد وحفظه وعلى تنمية الحيـــاة الروحية للنفس واقتيادها نحو معرفة الله.

٣ – الملائكة ليست محتاجة إلى هذه الخليقة.

كيـــف تكون الملائكة في احتياج إليها وهي قد وُجدت قبلها؟ ولتعلم أن الملائكة أكثر قدماً منها. اسمع كيـــف أن الله عندما تحادث مع أيوب قال: «**عِنْدَمَا تَرَنَّمَتْ كَوَاكِبُ الصُّبْحِ مَعاً وَهَتَفَ جَمِيعُ بَنِي اللهِ؟**» (أي٣٨:٧).

بمعنى أنها قد ذُهلت أمام كثرة الكواكب وجمالها ونظامها ونفعها وتنوعها ونورها وتناسقها وكل صفاتها الأخرى!.

٤ – لكنه لم يزين السماء فقط بالنجوم، بل زينها بالشمس والقمر، جالباً لك في كل موقف مسرة عظيمة وكذلك نفع عظيم. هل هناك جمال يفوق روعة السماء إذ تتلألأ بأشعة الشمس (وبـــدت) كأنها قد تلألأت بقطرة حب ملتهبة، تنير الأرض بعدد لا يحصى من النجوم، تقود الربابنة والمسافرين كأنها تمسك بيدهم؟

٥- إن مـــن أبحر وهو جالس على الدفة أمام هجمات الأمواج واندفاع المياه الهائجة لأعلى بفعل الرياح العاتية متعهداً عجلة القيادة في ظل ليلة غير مقمرة (يعرف ما معنى أن يكون) واثقاً في الطريق الذي يسترشد فيه بالنجوم.

٦- والنجـــم ولو أنه موضوع في الأعالي، فهو يقود بمنتهى الدقة كما لو كان قريباً وبجانب الإنســـان الموجود على بعد شاســـع، ويجتذبه إلى الميناء دون أن يكلمه، مبيناً الطريق للبحارة، ومتيحاً لهم أن يبحروا في أمن، ومشـــيراً لهم على الأوقات المناسبة، بحيث أنهم أحياناً يحجزون السفينة في الميناء، وأحياناً أخرى يأخذونها إلى أعالي البحار وكلهم ثقة أنهم لن يعانون الغرق، بالرغم من عدم يقينية التنبؤ بالمستقبل من جهة سقوط عاصفة عليهم ذات يوم.

٧- إن النجوم لا تحدد فقط كل ما يفيد في تحديد محتوى السنوات والمواسم المناسبة، بل تشير بدقة كبيرة في كل ليلة إلى الساعة وحركة الطقس، وتتيح لكل من ينظرهم أن يرى في أي وقت انقضى الجزء الأكبر (من الليل)، وفي أي وقت يتبقى الجزء الأصغر ، الأمر الذي هو مفيد ليس فقط للبحارة، بل أيضاً للمسافرين (براً) لكي لا يبدأوا الرحيل في ساعة غير مناسبة من الليل، ولا يبقوا في بيوتهم في وقت مناسب للرحيل.

وبخصـــوص هذه النقطة فإن أطوار القمر هي مثل النجوم يمكن أن تعطي دلائل محددة يمكن الاعتماد عليها.

٨- في الواقع أنه كما أن الشمس تنظم ساعات النهار، كذلك فإن القمر ينظم ساعات الليل، وفضلاً عن هذا فإن القمر يؤدي خدمات أخر، فهو ينشر هواءً معتدلاً، وهو يصنع الندى لينبت الزروع، ويفيد البشر أيضاً في تنظيم حياتهم في بيوتهم، محتلاً موقعاً وسطاً بين مجموعة النجوم والشمس اللامعة، وهو أقل لمعاناً من الشمس، لكنه فائق جداً في لمعانه عن النجوم.

٩- مـــن هذا التنوع يتولد لمن يتأملون النجوم مســـرة وفائدة غير قليلة، بل وفوائد محددة: فمنها مثلاً ما يتيح ســـبق رؤية الأوقات المناسبة وتحديد الزمن وتحديد الطقس... وما يؤخذ من تنوعها عسير وصفه. ويمكن رؤية نجم صغير جداً وآخر عظيم ولامع جداً، والبعض منها يظهر في أوقات مختلفة.

١٠- في الواقع إن فيض الحكمة البارعة خلقت في كل موضع تنوعاً هائلاً (من المخلوقات)، وفي نفـــس الوقت أعطت الدليل على قوتها الذاتية في تحقيق العجائب فهي تفكر في منفعة من ينظرونها، وتمنحهم كل أنواع الامتيازات المستحيل عدّها وتبهج العيون فوق كل هذا.

١١- أي شيء يفوق جمال السماء وقد امتدت فوق رأسك، تارة كغطاء نقي شفاف، وتارة أخرى كسهل منبسط تزينه الورود ومظهرة تاجها؟ إن المتعة بجمال الورود نهاراً لا يفوق تأمل جمال السماء ليلاً وقد تلألأت بآلاف النجوم الزاهرة التي لا تذبل، بل دائماً تُظهر جمالها النقي والفريد في نوعه.

١٢- أي منظر أكثر من هذا، إذ بمجرد اختفاء الليل وقبل أن ترسل الشمس أشعتها، عندما تكتسي السماء بغطاء بهيج من الأضواء الأولى لشروق الشمس؟ أي مشهد سيصير أكثر جمالاً من الشمس التي تشرق بعد الفجر وفي لحظة تضئ خيوط أشعتها كل الأرض والبحار والجبال والأودية والروابي والسماء، وتجرد كل ما هو ظاهر من رداء الليل (الكثيف) وتظهرها لأعيننا في عُريها؟

١٣- كيف لا يُصاب الإنسان بالتعجب أمام مسارها ومسيرها المنتظم، وخدمتها الحرة التي لا تكل على مدى فترات طويلة من السنين، وجمالها البهيج دائماً ولمعانها وبهائها ونقاوتها التي لا تتدنس أبداً رغم امتزاجها بأجساد كثيرة جداً؟ وأيضاً أمام فائدتها التي يستحيل وصفها بالنسبة للزروع والنباتات وأجساد البشر والزواحف والأسماك والأهوية والأحجار والأرض والبحار والهواء، وبالاختصار في كل ما يُرى؟

١٤- لأن كل من احتاج إليها واستفاد من إحساناتها صار أفضل عندما نال نصيبه منها، وليس فقط الأجساد والنباتات بل أيضاً المياه والمستنقعات والينابيع والأنهار وطبيعة الهواء ذاتها بها تتخفف وتتنقى وتكون أكثر شفافية.

١٥- لهذا إذ أراد إظهار جمالها ونورها المشع دائماً، واللحظة التي فيها تُدرك قمة ارتفاعها وبهاءها وشكلها الكامل والخدمة التي تؤديها بكامل حريتها وبلا كلل، قال المرتل: «**جَعَلَ لِلشَّمْسِ مَسْكَناً فِيهَا**» (مز١٩: ٤).

أي في السموات عينها. وهو قال هذا في حديثه عن خيمة الله. «**وَهِيَ مِثْلُ الْعَرُوسِ الْخَارِجِ مِنْ حَجَلَتِهِ. يَبْتَهِجُ مِثْلَ الْجَبَّارِ لِلسِّبَاقِ فِي الطَّرِيقِ** » (مز١٩: ١٥).- ثم إذ أراد أن يظهر الحرارة التي بها تتم خدمتها، فإن المرتل أضاف قوله: ثم تكلم عن الطريقة التي بها تكفي وتخدم الأرض كلها فقال: «**مِنْ أَقْصَى السَّمَاوَاتِ خُرُوجُهَا، وَمَدَارُهَا إِلَى أَقَاصِيهَا، وَلاَ شَيْءَ يَخْتَفِي مِنْ حَرِّهَا** »(مز١٩: ٦)، وأخيراً عن المنفعة والمعونة التي تعضد بها الكل فقال:« **وَلاَ شَيْءَ يَخْتَفِي مِنْ حَرِّهَا.**» (مز١٩: ٦).

١٦- إن كنت لا تسأم التأمل، فإنك تستطيع أن تتطلع إلى عناية الله في شهود كثيرين:

في السحاب، فصول السنة، دورات النجوم، الرياح، البحر وكل أنواع الكائنات التي فيه، الأرض وكل ذوات الأربع التي تقطنها، الزواحف، الطيور التي تطير في الهواء، الحيوانات البرية والحيوانات البرمائية التي تعيش في المستنقعات، الينابيع، الأنهار، الأرض المأهولة بالسكان وغير المأهولة بهم، الزروع التي تنبت، الأشجار، النباتات وكل ما ينبت في المناطق الصحراوية.

١٧- نباتات السهول، الوديان الضيقة، الجبال، النباتات التي تنمو من ذاتها، الثمار الناتجة عن الجهد والزراعة، الحيوانات المستأنسة وغير المستأنسة، الحيوانات المتوحشة والأليفة، الصغير والكبير (منها)، الطيور التي تظهر في الشتاء وفي الصيف وفي الربيع، ذوات الأربع والأسماك، النباتات، الأعشاب، ما يحيا في الليل وما يحيا في النهار، الأمطار، تحديد السنوات، الموت.

١٨- الحياة، التعب الذي نتشارك فيه جميعنا، الحزن، الاستكانة، الأكل والشرب المعطى لنا، الآداب، الفنون، الخشب، الحجر، الجبال التي تخفي المعادن (داخلها)، البحر المؤهل للملاحة، أيضاً غير الصالح للملاحة، الجزر، الموانئ، الأماكن شديدة الانحدار، ما يظهر على سطح البحر، الذي في عمق المياه، عناصر الطبيعة التي بها تشكل العالم لنا، توزيع المواسم، الطول المتفاوت والاختلاف للنهار والليل.

١٩- المرض، الصحة، أعضاء جسدنا، تركيبة نفسنا، الفنون، المهارة التي تتطلبها هذه الفنون والتي قد أعطيت للبشر، الامتيازات التي أمدتنا بها الحيوانات غير العاقلة التي تخدمنا، النباتات وغيرها من المخلوقات. هل يوجد أصغر من الفراشة وأحقر منها؟ أو مثل النمل أو النحل؟ ومع هذا فهذه جميعها تحدث عن عناية الله وقدرته وحكمته!

٢٠- من أجل هذا، إذ تأهل النبي بالروح للتأمل في الخليقة كلها، وقد ذكر بعض التفاصيل الخاصة بها، وقع تحت تأثير دهش عظيم فصرخ قائلاً: «**مَا أَعْظَمَ أَعْمَالَكَ يَا رَبُّ! كُلَّهَا بِحِكْمَةٍ صَنَعْتَ**» (مز ١٠٤: ٢٤)،، وكل هذا لأجلك أيها الإنسان!.

٢١- حقاً، فإن أهوية السماء(الرياح) أيضاً قد خُلقت لأجلك — لأننا سنعود مرة أخرى إلى بداية حديثنا — لتنعش أجسادنا المتعبة وتجفف المناطق الموحلة وتخفف شدة حرارة أشعة الشمس وتزيح الهواء المثقل بالدخان والعوادم الأخرى، وتخفف اختناقات الصيف، وتنمي الزروع وتساعد على الإبحار، وفي الأرض تستخدم في خدمة الزراعة.

فهي تارة تدفع السفن بسرعة أكثر من السهم وتجعل هكذا الملاحة سريعة ومقبولة.

٢٢ – وتـــارة تعمل معك مذرّية فتفصل التبن عـــن القمح، مخففة مجهود العمل، لجعل الجو أخف وألطف ليفتنك، وأحياناً تهمس الأهوية بلطف وبسرور، وأحياناً تهب بنسمة خفيفة على النباتات وتحرك أوراق الشجر.

٢٣ – من أجل حصولك في الصيف وفي الربيع على نوم ألذ وأحلى من العســـل فإن الهواء يرف على وجه مياه البحار والأنهار كما يؤثر في الشجر، فالأهوية تُظهر نفسها لتعطيك مسرة لدى رؤيتها وقبل هذا تؤدي لك خدمة عظيمة.

٢٤ – بالإضافة إلى هذا فإن هذه الأهوية مفيدة للمياه، لأنها لا تدع الماء يفسد من الركود، بل هي تحركه على الدوام وتهوّيه وتجدده وتجعله جارياً وأهلاً أكثر لطعام وشـــراب المخلوقات التي ترتع فيه

٢٥ – وإن أردت البحـــث في الليل، فإنك تنظر فيه أيضاً العناية اللانهائية للخالق، فإنه يعين جسدك المتعب، ويريح أعضاء جسمك المجهدة من أتعاب النهار فتعمل فيها تغيير وتعدها من جديد وبالراحة تستعيد عافيتها.

٢٦ – وليـــس هذا فقط، بل هو يخلصنا مـــن الأتعاب التي تحل بنا كل يـــوم، ويريحنا من الاهتمامات المزعجة، بل أحياناً يهدئ الحمى، إذ يقود الإنسان إلى نوم يكون بمثابة علاج له، فيصل هكذا بالفن المتردد للأطباء إلى ميناء الهدوء وينقذ الإنسان من آلام متعددة. بهذا القدر فإن الليل مفيد، بل وعظيمة هي ميزاته، فمن يُحرم من راحة الليل غالباً ما يخسر النهار.

٢٧ – في الواقع إن رفض الإنســـان أن يعطي عقله هدوءاً، فإن اســـتجمام وهدأة الليل التي بواسطتها يستريح كل شيء وبفضلها تستعد النفس المجهدة والجسد المتعب لمباشرة عمله اليومي بنشاط وافر، ففي هذه الحالة نجد أن الكائن الحي يبدو وكأنه عاجز عن تأدية أية خدمة.

٢٨ – لو أن شخصاً أضاف الليل إلى النهار وبقى مستيقظاً، حتى إن عمل أو لم يعمل شيئاً واستمر على هذا الحال، فإنه حتماً سيموت أو على الأقل سيصير فريسة لمرض طويل، ولن يجني شيئاً من النهار لإبداء النشاط المفيد، لأن قوته قد انطفأت.

٢٩ – بالإضافة إلى هذا لو جعلنا حديثنا يمتد إلى العالم الهائل للأسماك وعالم المستنقعات والينابيع والأنهار والبحار الصالحة للملاحة وغير الصالحة لها، أو لو لاحظنا (عن كثب) أجناس

الطيور المستحيل وصفها، تلك التي في الهواء والتي على الأرض وتلك التي تعيش في الهواء والأرض معاً، لأنه يوجد عدد كبير منها بر هوائي... تلك الرديئة والأخرى لطيفة المعشر، وتلك التي كانت متوحشة، وتلك التي تؤكل والتي لا تؤكل، هذا غير لو فحصنا بتدقيق جمال الريش والصوت الجميل لكل واحد منها.

٣٠- لو نحن ثابرنا فقط على متابعة اختلاف غنائهم وطعامهم ونوع حياتهم، ثم وصفنا عاداتهم وسلوكهم وفوائدهم وكل الخدمات التي يؤدونها لنا، وأحجامهم الكبيرة والصغيرة، والطريقة التي بها يُلدون وطعامهم واختلافهم الهائل والمستحيل وصفه، ولو فعلنا نفس الشيء للأسماك ومنه عبرنا إلى النباتات وفحصنا ثمارها ورائحتها الزكية وتركيبها وأوراقها وألوانها والخدمات التي تؤديها وطريقة زراعتها.

٣١- إن كل هذا لأجلك أيها الإنسان!

الفنون لأجلك، الآداب، المدن، القرى، النوم لأجلك، الموت لأجلك، الحياة لأجلك، النمو، وكثير من الظواهر الطبيعية. وهذا العالم على عظمته لأجلك، الآن وفيما بعد عندما يصير أفضل. وكون العالم سيصير أفضل لأجلك فهذا ما يؤكده بولس بقوله: «**لأَنَّ الْخَلِيقَةَ نَفْسَهَا أَيْضاً سَتُعْتَقُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْفَسَادِ إِلَى حُرِّيَّةِ مَجْدِ أَوْلاَدِ اللهِ**» (رو٨: ٢١). أي ستعتق من كونها فاسدة. وكونها ستنعم بمثل هذا الشرف لأجلك فهذا ما يظهره بولس بقوله: « **إِلَى حُرِّيَّةِ مَجْدِ أَوْلاَدِ اللهِ** » (رو٨: ٢١).

٣٢- لو لم يكن حديثي قد استطال جداً وفاق الحد لكنت تحدثت (أكثر) عن دروس روحية مستفادة من الموت، ولأظهرت فيه بالذات عناية الله وحكمته، (وكنت) سأقول أشياء كثيرة عن الفساد والتحلل والدود والرماد الذي تجزع أمامه غالبية الناس وتنتحب لأن جسدنا تحول إلى تراب ورماد. بل سأظهر بعد هذا عنايته التي لا توصف وصلاحه الممتلئ اهتماماً (بنا).

٣٣- فإنه قد خلقنا نحن الذين كنا عدم بفعل عنايته وصلاحه، ولنفس السبب هو أرادنا أن نموت ونتهي بهذه الطريقة. لأنه ولو أن الأشياء المخلوقة مختلفة لكنها نتاج نفس الصلاح.

من قد رحل لن يصير متضرراً، ومن عاش سيجني منفعة عظيمة، إذ يجد في الجسد الذي مات أمامه درساً روحياً.

٣٦-عندما يرى الإنســـان رفيقه الذي كانت يسير بجانبه بالأمس والأيام السابقة قد تحلل وأكله الدود وتحول إلى تراب رماد، فحتى لو كان له عجرفة الشيطان فسيصيبه الخوف ويتذلل وينقاد إلى الاعتدال ويتعلم التأمل، ويُدخل في اعتباره التواضع مصدر كل الخيرات.

٣٧- ثم إن من رحل، لن يُصاب بأذى، لأنه سينال بالمقابل جسد غير فاسد وخالد، ومن هو لا يزال على قيد الحياة سيجني منافع عظيمة جداً من كون المائت لم يتضرر (بل انتقل إلى حالة أفضل). إن الموت قد أُعطي لكياننا كمعلّم بارز للحياة الروحية، مهذباً لفكرنا ومقيداً لأهواء النفس ومهدئاً زوابعها ومقيماً فيها السكون.

٣٨- والآن بعد كل ما قلناه وبعد أشياء أخرى أيضاً، قد فهمتَ أن عناية الله تفوق أشعتها ضياء النور الأرضي، فلا تفحص بفضول الأمور التي تعلو قامتك ولا تســعى لأشياء لا تُدرك، ولا تبحث عن علة كل شيء فوجودنا ذاته هو هبة معطاة لنا من قبيل صلاحه الفائق، إذ ليس هو محتاجاً إلى عبوديتنا.

٣٩- إذاً فلنحبه ونعبده لأنه خلقنا، لا لأنه وهبنا نفساً روحية عاقلة، ولا لأنه جعلنا أسمى خليقته، ولا لأنه أعطانا سلطاناً على المنظورات، وإنما لأنه لم يكن محتاجاً إلينا. هذه هي علامة حبه العظيم أنه أوجدنا لخدمته بالرغم من عدم احتياجه لعبوديتنا، فإنه قبل أن يخلقنا أو يوجد الملائكة والقوات السمائية كان كائناً في مجده الذاتي وقداسته. لكنه دعانا إلى الوجود من أجل حبه وحده. من أجلنا صنع كل هذا وأمور أخرى.

الفصل الثامن

دليل عناية الله بنا أنه أعطانا الناموس الطبيعي والناموس المكتوب، وأخيراً صار أساس كل الخيرات في نوال النعمة بمجئ الابن الوحيد.

١- لقد وهبنا الله ناموساً مكتوباً لنفعنا وأرسل الأنبياء وصنع المعجزات وقبل كل هذا قدم للإنسان بعدما خلقه ناموساً طبيعياً لخدمته، يقوم بدور القبطان في السفينة، وكاللجام بالنسبة للحصان، مخضعاً له تفكيرنا.

هذا عرفه هابيل بينما لم يكن قد وجدت بعد كتب مقدسة أو أنبياء أو رسل أو أي تعليم مُعطى بناموس مكتوب، بل كان له (فقط) الناموس الطبيعي.

٢- وعرفه قايين أيضاً. عرفه الاثنان وعرفا سيادته عليهما، لكنهما لم يسيرا في ذات الطريق؛ بل اختار أحدهما طريق الرذيلة والآخر طريق الفضيلة. ومع هذا لم يترك الله الإنسان في هذا الموقف، لكنه إذ سقط جذبه وأعاده إلى الطريق المستقيم، وأحاطه بحبه وأخذ يحثه وينصحه، كما أنذره بالخوف والرعدة. كان الله يعلّمه ويدربه.

٣- لكن حيث أن غالبية البشر خانوا هذه النعمة العظيمة، أي الانتفاع مما يلقنه إيانا الناموس الطبيعي — حتى في هذه اللحظة — فإن الله لم يترك البشرية ولا أسلمها إلى الهلاك الأبدي (حرفياً الهلاك الشامل)، بل انتظر عليها (وصبر) وأخذ يعلّمها ويحثها بأعماله وعطاياه وتأديباته، بالخليقة ذاتها التي تتجدد كل يوم وتؤدي مهمتها المعتادة، بالأشياء التي تتم مغايرة للترتيب الطبيعي، وبأبرار العصور الأولى.

٤- إنه في الواقع نقل هؤلاء الأبرار الجديرين بالإعجاب والممتلئين إيماناً من موضع إلى آخر، فعلى سبيل المثال نقل إبراهيم أولاً إلى أرض كنعان ثم مصر، ويعقوب إلى سوريا (الأصح العراق)، ثم موسى كان في مصر، والثلاثة فتية في بابل، ودانيال وحزقيال (أيضاً في بابل) وإرميا في مصر. وأعطى ناموساً وأرسل أنبياء، وكان يضرب مؤدباً ثم يرخي صرامته، ويسلم إلى العبودية ثم يمنح العتق ولم يكف عن تدبير كل الأمور لصالحنا منذ البداية إلى النهاية.

٥- ولكنه لم يكتف بالتعليم المُعطى بواسطة الناموس الطبيعي (الذي يأتي بالناس إلى معرفة الله)، لكن حيث أن كثير من البشر لم يجنوا أية منفعة بسبب جهلهم، فإنه افتتح طرق أخرى لتعليمهم، وأخيراً كلل إحساناته بإرسال ابنه الوحيد.

٦- إن الابن المســـاوي للآب في الجوهر صار مثلي! كان يسير على الأرض ويختلط بالبشر ويصنـــع عجائبه بينهم، صانعاً مواعيداً بينهم، وأتممها بينهم، ومنحهم هنا على الأرض بعضاً مـــن هذه الخيرات، وحفظ الأخرى للدهر الآتي. والبرهان على أنه ســـيعطيها، هو المعجزات التي أتممها عندما كان لا يزال على الأرض، وبعد ذلك إتمام ما قد ســـبق أن أعلنه[a] «مَنْ يَتَكلَّمُ بِجَبَرُوتِ الرَّبِّ؟ مَنْ يُخْبِرُ بِكلِّ تَسَابِيحِه؟». (مز١٠٦ : ٢).

من لا يندهش؟ من لا يقف مرتعداً أمام اهتمامه الذي لا يوصف (بنا)، إذ يتأمل كيف أن الله أســـلم ابنه الوحيد للموت من أجل عبيد جاحدين؟! بذله إلى موت اللعنة والهزء؛ موت المجرمين؟!

٧- لقد سُمر على صليب مرتفع وبصقوا على وجهه! ضربوه بالعصي ولطموه! استهزأوا به وإذ أشفقوا عليه كفنّوه وختموا قبره!

هـــذا كله احتمله من أجلك! من أجل حبه المملـــوء رأفة، حتى يعتقك من عبودية الخطية، ويكسر سلطان إبليس ويحطم قيود الموت، ويفتح لنا أبواب السماء، ويزيل اللعنة، ويمحو الخطية الأولى ويعلّمك الصبر، ويقودك إلى الاحتمال فلا تتضايق من أمور العالم، لا موت ولا لعنات ولا شتائم ولا هزء ولا ضربات ولا مكائد عدو ولا افتراءات ولا هجوم ولا اتهامات أو إساءة ظن ولا شيء من هذا القبيل.

٨- لقد اجتاز هو هذا كله مشاركاً لك كل ألم، غالباً إياها بأسلوب عجيب، حتى يعلمك ويرشدك ألا تخاف شيئاً من هذه المحن. و لم يكتف بهذا، بل إذ صعد إلى السموات وهبنا نعمة روحه القدوس العجيبة، مرسلاً تلاميذه ليكونوا في (حقل) خدمته.

٩- وإذ ترى أن هـــؤلاء الكارزين بالحياة تألموا كثيراً: ضُربوا بالعصي، وأُهينوا وطُرحوا في البحار وعانوا من الجوع والعطش، وهم مخاطين كل يوم بالضيقة وعائشين وسط أخطار يومية مميتة، وقد سمح لهم بهذا كله من أجلك ومن أجل صلاحه المملوء عناية بك. من أجلك يا إنسان أعدّ الملكوت! ولأجلك أعد خيرات لا توصف ونصيباً محفوظاً في السموات وحياة لا مثيل لها مملوءة غنىً وسعادة لا يُنطق بها.

١٠- بينما لك براهين كثيرة على عنايته في العهد القديم والجديد، في الحياة الحاضرة والآتية، فيما سيصير وما هو كائن، فيما يتم كل يوم، فيما يليه وحتى فيما هو دائم في الأمور الجسدية والروحية، فهل تشك وأنت ترى في كل جانب سحب من البراهين التي تعلن عنايته؟

١١- كلا، لا تشك بل ثق أنه يمارس عنايته وتيقن من هذا. لا تضع بعد أسئلة سخيفة، عالماً تماماً أن لك سـيداً أكثر عطفاً عليك من الأب وأعظم حنواً من الأم وأكثر حباً من العريس أو العروس المتيمة، مفكراً أن راحته هي في خلاصك، ويبتهج هو بخلاصك أعظم من ابتهاجك وأنـت هارب من الأخطار والموت، وقد برهنت لك (هـذا) بمثال يونان، مظهراً (لك) كل أشكال الحب.

١٢- حب الأب لأولاده والأم لصغارها والبستاني لنباتاته والمهندس المعماري لعمله والعريس الحديث الزواج لعروسه والشاب للفتاة، حبه يريد إبعاد البلايا عنك بقدر المشرق عن المغرب، وبقدر علو السماء عن الأرض. هذا أيضاً أوضحناه وأفضل جداً ليس فقط بقدر هذا، بل أيضاً وأكثر من هذا كما أظهرنا في استثارة الفكر حول هذه النقطة وتعهدك بعدم التوقف عند الصور (التشـبيهية) بل يتخطى البراهين (العقلية)، لأنه يستحيل التعبير عن عنايته وحنانه غير المدرك وصلاحه الذي لا يعبّر عنه وحبه الذي لا يستقصى.

١٣- الآن وقد عرفت هذه الأمور جميعها التي من خلالها يعلن الله لك عن ذاته وأعماله التي صنعها وسيصنعها معك، فلا تسأل أسئلة فضولية ولا تتكبر ولا تقل: لماذا هذا وما سبب ذاك؟ ألا يكـون هذا جنوناً وامتلاءً بكبرياء مفرطة واختلال عقلي؟ فبينما لا يكابر أحد مع الطبيب الذي يُجري له الجراحة ويكوي ويوصي بأدوية مرّة، حتى وإن كان الطبيب عبداً، فإن سيده يحتمله في صمت بل ويشـكره على كيّه (المؤلم) وعلى جراحته وأدويته (المرّة)، وهذا رغم أن المستقبل غير مضمون إذ أن مرضى كثيرين ماتوا على أيدي أطباء؛ فبينما تتم الطاعة بكثير من الخضوع للطبيب عندما يتصرف هكذا، وبينما نفس الشيء يتم مع القبطان والمهندس المعماري ومع كل من لهم كفاءات في مختلف الأنشـطة، فكم بالأولى يليق بالإنسـان أن يخضع للديان والمهندس صاحب السلطان على كل شيء؟!

١٤- إن كان من الغباء أن يستفسر إنسان جاهل بلا خبرة من المهندس عن أسباب كل ما يصنعه، هكذا أيضاً من الغباء وضع أسئلة طائشة عن هذه الحكمة العجيبة غير المنطوق بها وغير المحـدودة، والبحث لماذا حدث هـذا أو ذاك، ونحن متأكدون تماماً من حكمة صانعه التي لا تخطئ، وصلاحه اللانهائي، وعنايته التي لا توصف، فكل ما يأتي منه موّجه إلى هدفٍ سامي،

بشرط أن نشاطنا لا يعيقه، إذ لا يريد هلاك أحد بل خلاصه.

أليس هذا انحراف في الفكر يفوق كل جنون أن نبدأ في أن نسـأل ذاك الذي يريد ويستطيع أن يخلصنا كلنا ولا ننتظر (لنرى) حتى نهاية الأحداث؟

الفصل التاسع

لا ينبغي السعي لفحص الأحداث

بل يلزم الانتظار إلى النهاية

١- في الواقع ينبغي للإنسان فوق كل شيء ألا يسأل أسئلة فضولية، لا في البداية ولا بعد ذلك، لكن إن كنت أنت هكذا فضولي ومتطفل،فانتظر إلى النهاية لترى إلى أين تفضي الأحداث، ولا تنفعل أو تنزعج منذ البداية.

٢- كما أن الإنسان العديم الخبرة، في رؤيته لمن يسبك المعادن وهو يبدأ في صهر الذهب وخلطه بالرماد والقش – فلو لم ينتظر إلى النهاية – سوف يظن أن تلك القطعة الصغيرة من الذهب قد فُقدت، كذلك لو أن إنساناً ولد ونشأ في البحر، ثم انتقل بعد ذلك ليسكن في البر ولم يكن قد سمع قط عن طريقة الزراعة: فلو رأى القمح قد عُزل عن القش وحُفظ في مخازن مغلقة بعيدة عن الرطوبة، ثم يعود الفلاح فيأخذ منه وينثره في الهواء وينشره على الأرض أمام كل العابرين، ليس فقط لا يضعه في مأمن من الرطوبة بل أيضاً يلقيه في الطين والوحل دون أية حماية، ألا يظن أن القمح قد فسد وألا يلوم الفلاح الذي تصرف هكذا؟

٣- أما هذه الملامة فهي ليست صنيعة طبيعة الأشياء، بل هي من فعل عدم خبرة وحماقة... من لم يحكم حسناً في تعبيره منذ البدء... على رأي غير ناضج. لأنه لو انتظر الصيف ولو رأى الحصاد الوفير والمنجل يُشحذ، وهذا القمح الذي نُثر وبقى متروكاً وفسد وتحلل وسُلّم للطين، نفس هذه البذار نبتت وتكاثرت وظهرت ناضرة وتجردت من قشرها العتيقة وانتصبت بكل قوتها كمن هي محاطة بنجوم صغيرة ومحاطة بحرس، رافعة ساقها في الهواء، فاتنة به المشاهد تغذيه وتقدم له غلة وفيرة، حينئذ سيُصاب بدهشة عظيمة جداً من هذه الحبات التي عبر أحداث كثيرة قد آلت إلى حالة ازدهار وإلى مثل هذا الجمال.

٤- وأنت يا إنسان لا تسأل سيدنا (ربنا) بالذات أي سؤال، لكن لو كنت متعطشاً للنقاش ومتجاسراً جداً لتطيش بمثل هذه الحماقة فانتظر إلى نهاية الأحداث. في الواقع لو أن الفلاح انتظر نهاية الأحداث و لم ينظر إلى المعاملة التي تُعامل بها البذور أثناء موسم الصقيع، بل للفوائد

التي سيجنيها، فكم بالأولى يلزمك أن تنتظر حتى النهاية من يفلح الأرض كلها ونفوسنا، ولا أقول لنهاية الحياة الحاضرة فقط — لأنه يحدث كثيراً أن لا يتحقق هذا على الأرض — بل لننتظر إلى الحياة الآتية. فمقاصد الله ترمي في كلا الحياتين إلى خلاصنا ومجدنا. ولو أنها حياة مجزأة من جهة الزمن، لكن الهدف يعطيها وحدتها، فكما أنه تارة يكون شــتاء وتارة أخرى ربيع، فإن انبثاق كل واحد من هذه المواســم يهدف إلى نتيجة واحدة وهي نضوج الثمر، هكذا يكون الأمر فيما يخصنا.

٥- عندما ترى الكنيســة مشتتة وتعاني أســوأ الاضطهادات، وقد طُرد رؤساؤها وضربوا بالعصي، لا تحصر ذهنك في حدود هذه المحن، بل تطلع إلى النهاية لترى المكافأة والجعالة ثمن الكفاح والجهاد، فالكتاب يقول: «**الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص**» (**مت ١٠ : ٢٢**).

في العهد القديم عندما لم تكن عقيدة القيامة قد انتشــرت بعد، فإن كلا الشــيئين (الجهاد والمكافأة) كانا يتحققان في الحياة الحاضرة، لكن في العهد الجديد ليس الأمر كذلك دائماً، بل توجد حالات تحدث فيها أشياء مؤلمة هنا في الأرض، أما السعادة فتنتظرنا بعد رحيلنا من هنا (من أرض الشقاء).

٦- لكن ولو أن السعادة التي يمكن توقعها في هذه الحياة قد تحققت لهم في الزمن الحاضر، فإن الذين لم ينعموا بهذه السعادة (هنا على الأرض) جديرون بأن ينالوا الإعجاب، إذ بدون معرفة واضحــة لعقيدة القيامة وفي رؤيتهم لأحداث مضادة لوعود الله، لم يعثروا أو يكونوا مترعجين أو مضطربين، بل فوضوا أمرهم إلى عناية الله الفائقة الإدراك دون أن يعثروا من البلايا، إذ يعلمون غنى وبراعة حكمته، فانتظروا للنهاية، (بل) وقبل النهاية وكل ما أتى عليهم احتملوه بشكر، ولم يتوقفوا عن تمجيد الله رغم أنه سمح بهذه التجارب. لكن لعل حديثنا يبدو غامضاً بعض الشيء، لذلك سأجتهد في أن أجعله أكثر وضوحاً.

الفصل العاشر

أبرار العهد القديم انتظروا نهاية الأحداث

١- كان إبراهيم شيخاً، ولكبر سنه صار جسده مماتاً عن الإنجاب، وكان كالأموات لا يمكن أن يكون أباً، لكنه استمر في الحياة – (وقد) تخطى البار الزمان الذي فيه يمكن للطبيعة (الجسدية) أن تهب نسلاً وكانت سارة التي كان عقمها كعقم الحجارة شريكة له حينما أعلن له الرب أنه سيجعله أباً لجمهور كثير ككثرة نجوم السماء.

٢- هذه هي العقبات التي صادفت إبراهيم، أنه وصل إلى سن الشيخوخة. أما بالنسبة لامرأته فهي وصلت إلى سن الشيخوخة والطبيعة (ذاتها) جعلتها عاجزة عن الحمل، لأنه لم تكن الشيخوخة هي فقط التي تمنعها، بل عجز طبيعتها أيضاً. وعندما كانت لم تزل حديثة السن، فإن القدرة التي تعطيها الطبيعة ظلت بغير تأثير، لأن هذه المرأة كانت عاقراً.

٣- وقد وصف بولس هذا الحال فقال « **وَلاَ مُمَاتِيَّةَ مُسْتَوْدَعِ سَارَةَ** »(رو٤: ١٩). إنه لم يقل «ولا مماتية سارة» وفقط، لئلا يظن أحد أن العقبة هي السن وحده، بل قال «ولا مماتية مستودع سارة» التي كانت هكذا عاقراً، ليس بسبب العمر المتقدم فقط، بل أيضاً بسبب طبيعتها (العاقرة). ولكن كما سبق أن قلت أنه بالرغم من وجود هذه العقبات، فإنه (أي إبراهيم) عرف معنى وعد الله وطرقه الكثيرة وإمكانياته العظيمة التي لا تعوقها قوانين الطبيعة ولا صعوبة الأمر ولا أي شيء مهما كان، إنما (قدرته الإلهية) تسير بنا وسط العوائق لتحقق ما قد سبق أن أعلنته.

٤- صدق إبراهيم ما قيل له وآمن بالوعد دون أن يتأثر بسبب تضارب المنطق، وقد حسب بالحق أن قدرة مَنْ قد وعد تعطي ضماناً لما قد أعلنه دون أن يبحث عن الطريقة التي سيتم بها هذا الوعد، ولا تساءل: لماذا لم يأتي الوعد في صباه، بل في شيخوخته بعد وقت طويل متأخر جداً.

٥- كذلك فإن بولس يعلن اسمه بصوت عال قائلاً: «**فَهُوَ عَلَى خِلاَفِ الرَّجَاءِ آمَنَ عَلَى الرَّجَاءِ، لِكَيْ يَصِيرَ أَباً لأُمَمٍ كَثِيرَةٍ كَمَا قِيلَ: «هَكَذَا يَكُونُ نَسْلُكَ»**» (رو٤: ١٨). وما معنى «على خلاف الرجاء آمن على الرجاء»؟ أي على خلاف الرجاء البشري آمن بالرجاء بالله الذي يغلب في كل شيء ويستطيع كل شيء ويسمو فوق كل شيء!.

لم يؤمن فقط أنه سيكون أباً، بل وأباً لأمم كثيرة، وهو الذي كان شيخاً غير قادر على الإنجاب وزوجته عاقر وفي سن الشيخوخة كما قيل له.

٦- « **وَإِذْ لَمْ يَكُنْ ضَعِيفاً فِي الإِيمَانِ لَمْ يَعْتَبِرْ جَسَدَهُ وَهُوَ قَدْ صَارَ مُمَاتاً، إِذْ كَانَ ابْنَ نَحْوِ مِئَةِ سَنَةٍ - وَلاَ مُمَاتِيَّةَ مُسْتَوْدَعِ سَارَةَ، وَلاَ بِعَدَمِ إِيمَانٍ ارْتَابَ فِي وَعْدِ اللهِ، بَلْ تَقَوَّى بِالإِيمَانِ مُعْطِياً مَجْداً للهِ. وَتَيَقَّنَ أَنَّ مَا وَعَدَ بِهِ هُوَ قَادِرٌ أَنْ يَفْعَلَهُ أَيْضاً**». (رو٤: ١٩-٢١).

إن معنى هذه الكلمات هو الآتي: بعد أن تحرر إبراهيم وتخلص في الحال من الضعف البشري، وبعد أن ارتفع إلى سمو من قد وعد وتفكر في قدرته التي لا توصف، جعل نفسه يقتنع متيقناً أن كلمته ستتحقق تماماً.

٧- لقد مجّد الله لأنه لم يكن فضولياً، ولا سأل في طياشة، وإنما خضع لحكمة الله غير المدركة ولقدرته، بغير نقاش فيما قيل له. أما كيفية تمجيدنا لله فهذا في خضوعنا دائماً أمام عنايته غير المدركة وأمام قدرته وحكمته التي لا توصف. ولا نكون فضوليين ولا نسأل بتهور: لماذا هذا؟ وما سبب ذاك؟ وكيف يتحقق هذا الأمر؟!

٨- لم يستحق إبراهيم الإعجاب في هذا الموقف وحده، بل حينما لم يعثر في أمر الرب له أن يقدم ابنه الوحيد، ابن الموعد، محرقة، مع أن هناك أسباباً كثيرة كان يمكن أن تعثر من كان غير منتبه ولا متيقظ. أولاً: إن كان الله يقبل مثل هذه المحرقات فهذا شيء مُعثر. ثانياً: كونه يوصي الآباء بقتل أبنائهم وأن يضعوا نهاية لحياتهم بميتة وحشية وتكبيدهم موت مبكر وبكونهم قتلة لفلذة أكبادهم هذا أيضاً معثر. ثالثاً: إنه أمر متعب كون الله يريد أن يتنجس مذبحه بدمائهم إن كان يريد أن اليد الأبوية (الحانية) توجه ضد ابن وحيد، وأن إنساناً باراً يكون أكثر وحشية من القتلة.

٩- علاوة على ذلك هناك طغيان الطبيعة الظاهر بشدة ويزعجه، ليس لأنه كان أباً وحسب، ولكن لأنه كان أباً لابن وحيد شرعي مبهج للرؤية ويسرّ من يبصره، فهو في الواقع كان في ريعان الشباب وأدرك قمة الفضيلة ويشع بجمال مضاعف للنفس والجسد.

١٠- كان إسحق محبوباً جداً، إذ وُهب له على خلاف الرجاء. لأنك تعلم مدى حب الآباء للصغار الذين يأتون على خلاف كل رجاء، ويمنحون بطريقة مخالفة للطبيعة في الشيخوخة، كما هو الحال مع إسحق. وفوق كل هذا فإن الشئ الأكثر جلباً للعثرة كان الإعلان والوعد، لأن الأمر (بالذبح) كان مخالفاً لها.

فإن الله من ناحية أعلن له «**أن نسله سيكون مثل نجوم السماء في الكثرة**» (**انظر تك ١٥ : ٥**)؛ ومن ناحية أخرى قد أعطي أمراً من الله أن يسلّم ابنه - وهو الذي به سيتحقق الوعد في الكثرة — إلى الموت ويذبحه بطريقة وحشية.

١١- لكن البار لم يُعثر ولا اضطرب ولا انتابته المشاعر الطبيعية لمن بدون تفكير يدعون أنفسهم ينجذبون نحو الأرض لأنه لم يقل في نفسه: ما هذا، هل أنا مخدوع؟ هل ضللت؟ هل هذا الأمر (حقاً) من قبل الله؟ لا، إلى الخلف! فلن أطيع هذا الأمر. إنه أمر يناقض العدل أن أكون قاتلاً لابني وأخضب يدي بدمه. كيف يتحقق الوعد؟ إن أهلكت الأصل من أين تأتي الأغصان؟ وكيف تأتي الثمار؟ إن نزحت المصدر من أين تخرج الأنهار؟ لو ذبحت ابني من أين يأتي النسل الوفير الذي يعادل عدد النجوم.

١٢- فكيف يعدني بشيء ويأمرني بشيء مضاد؟

إن إبراهيم لم يقل هذا و لم يفكر أبداً في كل هذا، بل التجأ إلى قدرة من قد أعلن له مثل هذه الأمور، إذ له قدرة لا توصف وهو خصب في طرقه ووسائله التي تلمع وسط الأحداث المخالفة، وهو يسود على قوانين الطبيعة، وهو أكثر قدرة من الكل ولا يمكن لشيء أن يعارضه، ولا يعرف المستحيل.

فأطاع إبراهيم الأمر وذبح وخضب يده بالدماء وحمّر به السيف واخترقت السكين الرقبة. وإن كان هذا لم يتم فعلاً، لكنه تحقق بالنية إذ أتم كل هذا بالفكر.

١٣- لهذا فإن موسى وهو ممتلئ إعجاباً به تكلم هكذا: «**وَحَدَثَ بَعْدَ هَذِهِ الأُمُورِ أَنَّ اللهَ امْتَحَنَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لَهُ: «يَا إِبْرَاهِيمُ». فَقَالَ: «هَئَنَذَا». فَقَالَ: خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ الَّذِي تُحِبُّهُ إِسْحَاقَ وَاذْهَبْ إِلَى أَرْضِ الْمُرِيَّا، وَأَصْعِدْهُ هُنَاكَ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَقُولُ لَكَ**». (**تك ٢٢ : ١-٢**). هل كانت هذه (الكلمات تتفق مع) الوعد، كلمات الإعلان، تلك التي كانت تقول أنه سيكون أباً لنسل وفير وأن نسله سيكون في كثرة نجوم السماء؟

١٤- انظر كيف أنه بعد هذه الكلمات (التي وعده الله فيها بنسل وفير) تلقى أمراً بذبح ابنه، فقبل أن يميت ويذبح مَنْ ينبغي أن يخرج منه نسلاً وفيراً ويقطعه من وسط الأحياء ويقدمه محرقة لله.

أما بولس الذي أُعجب به لهذا السبب فقد توّجه بأكاليل وأشهر اسمه قائلاً: «**بالإيمان قَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ وَهُوَ مُجَرَّبٌ**» (**عب ١١ : ١٧**). ثم أظهر عظمة الفعل الذي أتمه وأي إيمان قد برهن عليه فأضاف قوله: « **قَدَّمَ الَّذِي قَبِلَ الْمَوَاعِيدَ، وَحِيدَهُ** » (**عب ١١ : ١٧**).

١٥- إن معنى هذه الكلمات هو كالآتي: لا يمكن القول أن له ابنين شــرعيين، وأن الواحد اختفي ويمكنه أن ينتظر أن يكون أباً لهذه الكثرة (من النسل) عن طريق الآخر.

لكن لم يكن له إلا إبن وحيد وهو وحده الذي به تختص كلمات الموعد، لكنه فضّل (بل اختار) قتله (طاعة لأمر الله له). وهكذا كما لم يعق إيمانه في الوعد بميلاده، لا جســده الممات ولا عقم زوجته، هكذا الآن لا يزعزعه الموت!

١٦- قارن هذه الأحداث بما معك الآن ترى جبنك، وترى صغر نفوس الذين عثروا، وتدرك بوضوح سبب العثرة ليس هو في أن يسلم الإنسان نفسه بين يدي العناية الإلهية غير المدركة، بل في السعي بدون توقف لمعرفة الطريقة التي بها تتم مقاصد الله والتشدد في طلب (معرفة) سبب الأحداث والاجتهاد في فحص كل حدث.

١٧- لــو كان إبراهيم قد تصرف هكذا لكان قد صار عاجزاً بالنســبة إلى الإيمان، لكنه لم يتصرف بخفة. لهذا الســبب قد تألق وكل الأشــياء التي أُعلنت له قد تحققت. إنه لم يعثر لا بشيخوخة ولا بالأمر الذي أعطي له بعد ذلك.

إنه لم يفكر في أن الأمر كان معوقاً للوعد، ولا في أن المحرقة ستلاشى الضمان المُعطى، و لم يسقط في اليأس فيما يختص بالوعد مع أن اسحق قد جاء لتحقيق هذه الأعمال (المُختصة بوعد الله). لا تقل لي أن الله لم يســمح بأن يتم أمره ولا بأن تتخضب بالدماء يد البار، بل انظر إلى أن إبراهيم لم يعرف شيئاً من كل هذا، ولا أنه استعاد ابنه حياً ولا أنه عاد به هكذا إلى المترل، لكن كل انتباهه كان موجهاً لذبحه.

١٨- لهذا السبب قد دُعي اسمه مرتين من السماء. لأن الله لم يقل له «يا إبراهيم» مرة واحدة فقط، بل قال:

«إِبْرَاهِيمُ إِبْرَاهِيمُ». فَقَالَ: «هَئَنَذَا» (تك٢٢: ١١). فتراجع بتكرار هذه الكلمة وأوقف إرادته الممتدة نحو المُحرقة بمقدار انهماكه التام في (تنفيذ) الأمر المُعطى له. وها أنت ترى كيف أنه أتمه بالنية. هل عثُر؟ إطلاقاً وما السبب؟

السبب أنه لم يفحص مقاصد الله.

١٩- قل لي وماذا عن يوسف؟ ألم يتعرض يوسف أيضاً لأمر مماثل؟ فقد أخذ وعداً عظيماً، لكن الأحداث جاءت مناقضة لما قيل له. فقد رأى في حلم أن إخوته يســجدون له وعبّرت له النجوم والسنابل عن ذلك في حلمين، لكن جاءت الأحداث مناقضة لما قد رآه (في الأحلام).

٢٠ - فقد قامت ضده حرب قاسـية في بيت أبيه وحل إخوته رُبط الأخوّة وكسروا قوانين الطبيعة ونظامها، وصاروا بعد أحلامه معاندين وأعداء له بأكثر وحشـية من الذئاب. وكما تفتك الحيوانات الموحشة (بفريستها)، هكذا نصبوا له فخاخاً كل يوم (ليفترسوه).

٢١ - وكان مصدر هذه الحرب الحسـد المملوء جنوناً والحقد الظالم والغضب المشـتعل، وهكذا كانت تفوح منهم رائحة قتل كل يوم، وكانت الغيرة تؤجج هذا الأتون وتلهب النار. وإذ فشلوا في إيقاع الأذى به طالما أنه يعيش في البيت ويقيم مع والديه، فهاجموا المكانة التي كان يتمتع بها، فدبروا له سمعة رديئة ووضعوا عليه اتهام كريه مريدين هكذا تدمير الحب الذي كان يكنّه له أبوه فيقع بأكثر سهولة في فخاخهم.

٢٢ - ثم جذبوه بعيداً عن عيني والده، وإذ هو آت إليهم بالطعام يطمئن عليهم قابلوه (بغدر) ولم يبهجهم سـبب زيارته لهم ولم يحمّروا خجلاً أمام الطعام الذي أحضره أخوهم، بل سنّوا سيوفهم واستعدوا لقتله وصاروا كلهم قتلة أخيهم (بالنية)، ولم يمكنهم أبداً أن يتهموا من هم مزمعين أن يقتلوه باتهام خفيف أو ثقيل (يستوجب حكمهم عليه). لكنه بفضلهم صار مكللاً وانتشر اسمه من قِبل الذين حسدوه وقاتلوه وافتروا عليه.

٢٣ - أما بالنسـبة له فهو لم يحد عن رفقتهم بل في موقف حرج كهذا أظهر مشاعر أخوية حسنة. وهم الذين استعدوا لإخفائه — على الأقل بالنسبة لهم — وخضبوا أيديهم بالدماء وأتموا قتلهم له (بالنية).

٢٤ - لكن غنية هي طرق حكمة الله وإمكانياتها وسط المواقف المعقدة، إذ خلصته من الجب وأنقذته من رحلة الموت وانتزعته من الأيدي القاتلة. في الواقع أن أحد إخوته نصح بعدم قتله، لكن الله هو الذي ألهمه بهذه الفكرة وهو الذي منع ذبحه. ولكن هذا لم يكن نهاية الأهوال بل قد استؤنفت من جديد. وحيث أنهم قد مُنعوا عن قتله، فإن قلبهم كان لا يزال يغلي وغضبهم كان في قمته وتموج سخطهم كان شديداً فأعطوا لهذا الغضب شكلاً آخر.

٢٥ - فعروه من ملابسـه وربطوه ورموه في الجب ثم جلس هؤلاء الرجال القسـاة القلب — كالحيوانات المفترسـة — يأكلون من الطعام الذي أحضره لهم. هو كان في الجب في رعدة عظيمـة، أما هم فكانوا يأكلون ويمرحون!. ولم يكتفوا بهذا الجنون، إنما إذ رأوا البرابرة الذين تركوا بلادهم ذاهبين إلى مصر، أخرجوا أخاهم وباعوه. وبهذا دبروا له موتاً بطيئاً قاسياً مملوءاً آلاماً.

٢٦- تخيل معي مشـــاعر يوسف الذي كان صغير الســـن، وقد تربى في بيت أبيه في حرية كاملة بلا خبرة في حياة العبودية ولا في المعاناة التي تترتب عليها، يصير فجأة عبداً بدلاً من أن يكون حراً، وغريباً بدلاً من أن يكون صاحب المكان محتملاً أسوأ معاملة يمكن أن تحدث لأسير حرب. ولا يقف الأمر عند احتماله آلام العبودية، لكن يصاحبها آلام فراق أبيه وأخيه الأصغر بنيامين وكل أقاربه مع العري والتغرب بلا مترل ولا مدينة، مُسلماً للعبودية في أيد بربرية!.

٢٧- ألم يكـــن يكفيه هذا ليمتلئ اضطراباً: تراكم المحن، المفاجأة في الموقف، خيبة الأمل، قسوة التجربة التي هي من صنع أيدي إخوته المحبوبين لديه والذين لم يسئ إليهم في شيء، بل على العكس أحسن إليهم. لكن لا شيء من هذا جعله يضطرب مع أنه تكبد مثل هذه المعاملة (الشرسة)، ومضى مع التجار متنقلاً من عبودية إلى أخرى.

٢٨- صار يوسف عبداً، وأقام في بلد بربرية مع أنه عبراني حر المولد وحريته كانت مضاعفة، إذ كانت له حرية الجســـد وحرية النفس. إنه لم يترعج أبداً، ولم يُعثر على الإطلاق لما حدث له، لأنه كان يتذكر دائماً الأحلام التي أعلنت له عكس الواقع الذي يجاهه الآن، ولم يتســـاءل بطريقة فضولية: ما الذي يحدث؟

٢٩- أما الذئاب والحيوانات المتوحشـــة، قتلة أخيهم، فبعـــد أن أتموا هذه الجرائم (في حق أخيهم) عاشـــوا في حياة هنيئة في بيت أبيهم[٥]. أما يوسف المختار لكي يملك عليهم صار عبداً وسجيناً يباع ويُشترى في أيدي الغرباء، وعانى آلاماً مريعة، ليس فقط بعدم تسلطه عليهم، بل كونه صار عبداً لهم وذاق تجارب مناقضة للوعد تماماً، لأنه ليس فقط لم يحصل على المملكة، بل حُرم أيضاً من وطنه وفقد حريته ورؤية أهله.

٣٠- لم تتوقـــف حروبه عند هذا الحد، بل انفتحت له هوّة أعمق تفوح منها رائحة موت وقتل، موت بغيض وقتل ممتلئ خزي. فقد نظرت إليه زوجة فوطيفار نظرات أثيمة. لقد أسرها جمال الشاب واستعبدها منظره المنير، فكانت هي بالتالي تدبر له خديعة وفخاخاً.

٣١- بعد أن نصبت له كل شباك خلاعتها من كل جانب، كانت كل يوم تتربص بالشاب لتقتنصه في شباكها وتسقطه في الزنا وتسلّمه إلى موت أبدي. وكانت كل يوم تخرج لتبحث عن فريستها وقد وخزتها الشهوة وحبها الأثيم. رأته ذات مرة بمفرده وسعت إلى اجتذابه بالقوة إلى فراش الخطية وإرغامه على الالتصاق بامرأة غريبة وحاولت تدنيس فضيلته.

٥- لا أظن أن رؤيتهم منظر أبيهم وما أصابه من حزن شديد على موت يوسف جعلهم يعيشون حياة هانئة.

٣٢- لكن مع هذا لم يعاني البار أي ضرر ولا أسـر الشهوة ولا حمية الشباب، ولا من شر سيدته التي نصبت له الفخاخ وهاجمته بغير حياء، والهيجان المغروس في الشباب وكل ما يرغّب في الاقتـراب إلى هذه المرأة من منظرها وغواياها، لكنه خرج من هذه الظروف جميعها يفيض هدوءاً كالنسـر الباسـط جناحيه يرتفع بهما عالياً تاركاً ملابسه في الأيدي المتجاسرة. ترك ملابسه وصار عرياناً و لم يكن يكتسي إلا بفضيلته البهية والتي كانت أكثر لمعاناً حتى من الرداء الأرجواني.

٣٣- ثم عادت فأشـهرت سـيفها ثانية وهيأ الموت (لابتلاعـه). ارتفعت الأمواج عالية، واشتعلت شـهوة امرأة المجنونة بنار تفوق أتون بابل، والتهبت رغبتها وثار غضبها وقسوها المخيفة في وحشية بالغة، وأرادت قتله. فأسرعت للسيف واشتهت له موت الخزي وتاقت إلى إهلاك بطل الفضيلة وبطل الصبر والجهاد.

٣٤- اندفعت نحو زوجها واشتكت دون أن تروي له حقيقة الأمر، وإنما مثّلت أمامه مسرحية وشاياها، وأقنعته بما أرادت. اقمت غريمها بحجة أنها «أهينت» وطالبت بالانتقام. وكدليل على ما قالته، قدمت بين يديها النجسة ثياب الشاب البرئ.

٣٥- لم يسمع القاضي الفاسد للمتهم، ولا ترك له مجالاً للدفاع، بل أدان ذاك الذي لم يرَ حتى المحكمة كما لو كان قد ضُبط متلبساً بفعلته، واقتنع بإثمه كأن هذا الشاب قد اعتاد الزنا، فرماه في السجن وسلّمه إلى القيود٦. وذاك الذي كان مكللاً بأكاليل الفضيلة هذه، صار منذ الآن في السجن مع المجرمين ولصوص المقابر والقتلة، ومع الذين يمكنهم أن يقتلوه.

٣٦- لكن لا شيء من كل هذا جعل يوسف يضطرب.

أحد الذينِ أسـاءوا إلى الملك أُطلق سراحه (سـاقي فرعون)، لكن ظل هو محبوساً لوقت طويل محتملاً أسوأ العقوبات لأجل أشياء ستجعله جديراً بالأكاليل والشهرة. وفي هذا كله لم يضطرب يوسف ولا تعثر. لم يقل في نفسه: ما هذا؟ لماذا ذاك؟ أنا الذي كان ينبغي لي أن أملك على إخوتي، لكنني لم أحرم من هذه الكرامة فقط، بل وحرمت أيضاً من وطني وأهلي وحريتي وهدوئي، والذين كان ينبغي أن يسجدوا أمامي قد أبعدوني (من طريقهم).

٦- لا يبدو لي أن الأمر هو هكذا لأن فوطيفار بحكم كونه رجل شرطة يستطيع أن يبت في القضية ويفحصها جيداً، ولو لم يكن مقتنعاً ببراءة يوسـف لكان قتله لاسيما وأنه مجرد عبد وغريب في البلد. ولكنه اضطر لسجنه مراعاة لسمعة زوجته، ولكنه عوض هذا جعل أوضاع يوسف في السجن مريحة قدر المستطاع وهذا ما عزى يوسف بعض الشيء!

٣٧- ثم بعد محاولة قتلي باعوني وصرت عبداً للبرابرة يتبادلني سـيد بعد آخر، و لم تتوقف بلاياي عند هذا، بل من كل جانب أجد هوّة سحيقة وحجارة أتعثر بها. فبعد الفخ الذي نصبه لي إخوتي، كانت محاولة القتل والعبودية الأولى والثانية والتصق بي الموت من جديد، ثم صادفني افتراء أكثر بشـاعة من الأول، ثم مؤامرة، هجوم، محكمة فاسدة، اتهام مملوء بالخزي يجتذب لي الموت.

٣٨- ودون أن يتاح لي الدفاع عن نفسـي أُلقيت بمنتهى البساطة في السجن، وهأنذا أحيا وراء القضبان مع الزناة والقتلة ومن اجترأوا على اقتراف أسوأ من هذه الجرائم. إن ساقي الملك قد أُنتزع من وراء القضبان، أما أنا فلا أستطيع حتى أن أنعم مثله ببعض الهدوء. بالنسبة له قد تحقق حلمه بحسب تفسيري له، أما أنا فإنني أحيا في آلام لا تُطاق.

٣٩- هل هذا هو ما أظهرته أحلامي؟ هل هذا هو عدد النجوم الكثيرة؟ هل هذه هي حزم السنابل؟ ما الذي فيها من أمور معلنة؟ ما الذي فيها من وعود؟ هل خُدعت وضُلل بي؟ كيف يمكن لإخوتي أن يسـجدوا لي وأنا عبد سجين وإنسان مقيد ويُظن إنني زاني وتعرضت لأسوأ المخاطر ومطرود بعيداً عنهم. كل هذا عبر وتلاشى!

٤٠- لم يقل يوسـف هذا ولا فكر فيه، إنما انتظر النهاية وعرف غنى طرق الله وإمكانيات حكمته الفياضة، وليس فقط لم يعثر بل أيضاً تهلل وقبل برضى كل ما حلّ به.

٤١- قل لي ألم يتعرض داود لأكثر البلايا إيلاماً بعد أن مُسـح ملكاً ونال السـلطان على شعب العبرانيين بإرادة الله وبعد أن انتصر على البرابرة (جليات وجيشه الفلسطيني) وكسرهم؟ ألم يشن عليه شاول حرباً وصار هدفاً لمكائده، بل وصارت حياته في خطر، وأُرسل إلى الأعداء الألداء، وطُرد إلى البرية تائهاً ومنبوذاً بغير مأوى ولا مسكن ومنفياً؟

٤٢- ولماذا نقول المزيد من هـذا؟ ألم يُطرد في النهاية من وطنه تماماً وعاش عند الأعداء البرابـرة واحتمل حياة العبودية المؤلمة وكان ينقصه القوت الضروري. وكل هذا عاناه داود بعد مجيء صموئيل النبي وبعد مسـحه بالزيت وبعـد الوعد بالملك ونواله القضيب والتاج، وبعد اختيار الله له.

٤٣- لكـن مع هذا لم يعثر داود بل و لم يقل: لماذا هذا؟ وأنا الملك الذي سـأنعم بمثل هذا السلطان، أفلا أقدر حتى أن أعيش كإنسان عادي؟ هأنذا تائه منفي بلا مدينة ولا مأوى، مطرود في بلد بربرية، ليس لي حتى القوت الضروري ووسط أسوأ المحن، وأرى الخطر يحدق بي كل يوم! أين الوعد بالملك؟ أين الإعلان بنوالي السلطة؟!

لم يقل داود هذا و لم يفكر أبداً في شـــيء من هذا ولا تعثر بسبب الأحداث وإنما انتظر هو أيضاً تحقيق الوعد.

٤٤ – نستطيع أن نذكر كثيرين آخرين حلّت بهم صعاب مماثلة و لم يتأثروا بل تمسكوا بكلمة الله، حتى وإن كانت الأحداث تأتي بما يناقض الوعود. ولكن بصبرهم العجيب صنعوا لأنفسهم أكاليل مضيئة.

وأنت يا عزيزي انتظر النهاية، فبالتأكيد ســتتحقق لك المواعيد في هذا الدهر والدهر الآتي. تقبلّ عناية الله غير المدركة تحت كل الظروف ولا تقل: كيف تصادفني كل هذه الخسائر؟ ولا تسعى لفحص طرق أعمال الله العجيبة.

الفصل الحادي عشر

تحقيق الوعود لا يتم في الحال وانظر كيف أن القديسين لم يعثروا رغم أن الأحداث كانت مناقضة للوعود.

١- لم يبحث الأبرار كيف وبأي وسيلة تتحقق مواعيد الله. حتى عندما كانوا يرون كل الأمور قد تعقدت للغاية بحسب الفكر البشري، لم يتأثروا ولا اضطربوا بل احتملوا (كل هذا) في سمو. ودليلهم على المستقبل المُبشر هو قدرة ذاك الذي وعد. لهذا لم ييأسوا أمام تكذيب الأحداث للوعود.

٢- لقد عرفوا غنى طرق الله وحكمته، فإنه حتى إن بدا الموقف مناقضاً للوعد، لكن الله قادر أن يحوله لحال أفضل، وأن ما وعد به الله يمكن أن يتحقق في سهولة بالغة.

وأنت أيضاً يا عزيزي، إن زادت تجاربك في هذه الحياة مجّد الله، وإن صارت الأحداث نحو الأسوأ أشكره أيضاً ولا تتعثر، عالماً أن عناية الله لا نهائية، ولا يمكن تفسيرها، وأنها حتماً تبلغ إلى الهدف المناسب سواء في الحياة الحاضرة أو في الحياة الآتية.

٣- نقول لمن فقد صبره وهو يسمعنا نتحدث عن الحياة العتيدة مشتهياً في خوفه أن يرى تحقيق الأمور، أن الحياة الحقة والحقائق الدائمة تنتظرنا في المستقبل. فإن الحياة هنا وأمورها مجرد طريق، أما وطننا فهو في الدهر الآتي. أمور هذه الحياة تشبه زهور الربيع (التي تذبل سريعاً)، أما أمور الحياة الأخرى فتشبه صخوراً لا تتزعزع. هناك أكاليل ومكافآت أبدية، هناك ثمن الجهاد والكفاح، أما هنا فالعقوبات والتأديبات الشاقة محفوظة لمن تصرفوا بطريقة خاطئة.

٤- لكن ماذا ستقول عن الذين لم يكفوا عن التعثر؟[٧] إنك لا تحدثني عن الذين وسامهم لامع بل تذكر لي من كانوا لابسين قناع التقوى والآن هزمهم الخطأ!

ألم تر الذهب يُصفى، والرصاص يُكشف عنه؟ والتبن يفصل عن القمح، والذئاب عن الخراف، والمرائين عن الذين يعيشون في تقوى حقيقية؟ عندما ترى العثرات التي يسببها هؤلاء، فكر في الكرامة التي يتمتع بها أولئك (الذين صمدوا في وجه العثرات).

٧- هذا اعتراض يتخيله ذهبي الفم موجه إليه وسيرد عليه في السطور التالية.

٥- لقد سقط البعض لكن كثيرون لا يزالون قائمين، مهيئين أنفسهم لأعظم جعالة إذ أنهم لم يتزعزعوا، لا بقوة الأعداء ولا بقسوة الأحداث.

أمـــا الذين تعثروا فليتأملوا في حالهـــم. إن الثلاثة فتية قد أُبعدوا في الواقع عن الهيكل الكهنة والمذبح وكل فروض الناموس، وهم متروكين في بلد بربرية ومع ذلك ظلوا متمسكين بوصايا الناموس بدقة. وأيضاً دانيال وغيره كثيرون. لقد سُبي البعض منهم ولم يخطئوا، بينما الذين بقوا في ديارهم وتمتعوا بخيرات بلادهم ضلوا واستحقوا أن يدانوا (ويُعاقبوا).

الفصل الثاني عشر

لماذا سمح الله بوجود الأشرار والشياطين في العالم؟

١- إن كنت تطلب (معرفة) لماذا تمت هذه الأشياء، وإن لم تخضع لمقاصد الله العميقة وغير المفحوصة، وإن حصرت هدفك في مجرد التساؤلات المملوءة فضولاً، فإنك ستظل تتساءل في أشياء أخرى كثيرة مثل: لماذا ترك الله الباب مفتوحاً للهرطقات؟ لماذا أوجد إبليس والشياطين والأشرار الذين يُسقطون كثيرين؟ بل والأسوأ من هذا لماذا ينبغي أن يأتي ضد المسيح وتكون له القدرة على التضليل حتى إن أمكن أن يضل المختارين كقول السيد المسيح؟

٢- يجدر بنا ألا نبحث في هذا كله، وإنما نسلّم لحكمة الله غير المدركة. فالإنسان الشجاع والثابت بقوة في الله، حتى لو هاجت ضده الأمواج واجتاحته العواصف، ليس فقط لن يعاني أية خسارة، بل أيضاً سيصير أكثر قوة.

أما الشخص الضعيف المتخاذل فإنه حتى وإن لم يوجد ما يضايقه فإنه يسقط كثيراً. وإن أردت معرفة السبب (لترك الله للأشرار) فاسمع ما هو في مقدورنا أن نقوله. هناك دواعي أخرى كثيرة عند الله الذي يدبر بوسائل مختلفة وعجيبة كل ما يختص بنا، وما نعلمه من هذه الدواعي سنعرضه فيما يلي:

٣- إن الله يسمح بهذه العثرات لكي لا تقل مكافأة الأبرار، وهذا ما أكده الله في حديثه مع أيوب قائلاً: «**لَعَلَّكَ تُنَاقِضُ حُكْمِي. تَسْتَذْنِبُنِي لِتَتَبَرَّرَ أَنْتَ!**» (أي٤٠: ٨).

٤- ويقول بولس الرسول أيضاً: «**لأَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَيْنَكُمْ بِدَعٌ أَيْضاً لِيَكُونَ الْمُزَكَّوْنَ ظَاهِرِينَ بَيْنَكُمْ**»(**١كو١١: ١٩**).

وأنت عندما تسمع الرسول يقول: «إنه لابد أن تكون بدع» فلا تظن أن الرسول يقول هذا على سبيل الأمر أو أنه يقيم قانوناً. كلا، إنما هو يتنبأ بما سيحدث ويشرح مقدماً أن الناس اليقظين سيجنون من هذا منفعة عظيمة. لأن فضيلة الذين لن يضلوا ستبدو أكثر إشراقاً.

٥- علاوة على ذلك، فإن الأشرار قد تُركوا ليتصرفوا بحريتهم لسبب آخر وهو أنه إن لم يظهر ضعفهم لا يمكن حصاد تجديدهم. هكذا خلص بولس واللص والزانية والعشار وكثيرون

غيرهم. ولو كانوا خُطفوا من الأرض قبل توبتهم ما كان أحد منهم قد خلص.

أما بالنسبة لمجيء ضد المسيح، فإن بولس الرسول يعطي سبباً آخراً. ما هو؟

لكـــي يقطع على اليهود بكل الطرق كل حجة. فما هو عذرهم برفض المســيح وقد كان الأجدر بهم أن يؤمنوا به؟ ويقول أيضاً: «**لِكَيْ يُدَانَ جَمِيعُ الَّذِينَ لَمْ يُصَدِّقُوا الْحَقَّ، بَلْ سُرُّوا بِالإِثْمِ**» (**٢تس٢: ١٢**).وهكذا قالوا أنهم لم يؤمنوا بالمسيح لأنه قال عن نفسه أنه الله.

٦- «**لَسْـــنَا نَرْجُمُكَ لأَجْلِ عَمَلٍ حَسَـــنٍ بَلْ لأَجْلِ تَجْدِيفٍ، فَإِنَّكَ وَأَنْتَ إِنْسَانٌ تَجْعَلُ نَفْسَكَ إِلَهاً**»(**يو١٠: ٣٣**). مع أنهم سمعوه مراراً يشير إلى أبيه، وأثبت لهم بطرق كثيرة أنه جاء حسب إرادة الآب.

ماذا ســيقولون حينما يأتي ضد المسيح الذي يجعل نفســه إلهاً ولا يتكلم عن الآب ويصنع العكس تماماً؟ هذا ما وبخهم عليه الســيد المسيح وأعلنه مقدماً بقوله: «**أَنَا قَدْ أَتَيْتُ بِاسْمِ أَبِي وَلَسْتُمْ تَقْبَلُونَنِي. إِنْ أَتَى آخَرُ بِاسْمِ نَفْسِهِ فَذَلِكَ تَقْبَلُونَهُ**»(**يو٥: ٤٣**). من أجل هذا سمح با لعثرات.

٧- إن تكلمت عن الذين قد تعثروا، فأنا سأظهر لك الذين حصدوا من العثرة مجداً وسأقول لك نفس الشـــيء: لا يجوز أن يتسبب إهمال البعض وكسلهم في حرمان الساهرين من الجعالة والإكليل بالنسبة للمتيقظين. فلو لم تُتح لهم هذه الفرص من الحروب لأسئ إليهم!.

ليس فقط الذين لم يعثروا هم الذين يســـتطيعون أن يدينوا من عثر، بل الذين من هذا الفعل (المُعثر) قد نالوا مزيد من المجد والقوة (وهم بشر تحت الآلام مثلهم).

الفصل الثالث عشر

لا شئ يسبب ضرراً وعثرة لمن هم يقظون.

١- أخبرني: هل كان لإبراهيم كاهن ومصلحون ومعلمون وأناس ينصحونه؟ لم يكن له في ذلك الوقت كتاب مكتوب ولا ناموس ولا أنبياء ولا شئ من هذا القبيل، بل كان يبحر في بحر غير صالح للملاحة ويسير في طريق وعر. فأبوه وأقاربه كانوا عبدة أصنام، ومع هذا فإن الظروف جميعها لم تؤذيه بل زينت فضيلته.

٢- لذلك بعد زمن طويل – بعد مجيء الأنبياء والناموس وتعليم السيد المسيح الرائع بالأعمال والمعجزات – تبينت فضائله التي سبق فتزين بها من محبة حارة عملية واحتقار للغنى وحنانه الأبوي تجاه أهله (لوط وأسرته). لقد سحق الترف تحت قدميه وترك حياة المتعة الفانية وعاش في تقشف يفوق نسك رهبان عصرنا الذين بلغوا قمم الجبال (ليعيشوا فيها).

٣- لأنه لم يكن له منزل، إنما كانت ظلال أوراق الشجر سقفاً لهذا البار ومأوى له. وإذ كان غريباً امتلأ غيرة نحو إضافة الغرباء. اهتم هذا الغريب في البلاد الغريبة باستضافة القادمين إليه ظهراً وبخدمتهم، و لم يقم بخدمتهم وحده بل أشرك معه امرأته في هذا العمل الصالح.

٤- ألم يُسد صنيعاً إلى ابن أخيه مع أن لوط لم يكن قد تصرف معه حسناً بل أساء إليه وهذا بعد أن كانت لَه (بصفته الأكبر عمراً ومركزاً) إمكانية اختيار الأرض الفضلى(انظر تك١٣:١٧)نِ ألم يعرّض حياته لخطر محقق من أجله؟

وعندما أمره الرب أن يترك البيت (الأبوي) ليذهب إلى أرض غريبة أطاع في الحال وترك وطنه وأصدقاءه وكل أهل بيته، مرتبطاً بما لا يعرفه في يقين عظيم من أجل مواعيد الله.

وكان هذا دليلاً على إيمان مملوء خضوعاً.

٥- ثم حدثت مجاعة فتغرب ثانية بغير انفعال أو اضطراب، مُظهراً نفس الطاعة ونفس القوة ونفس الصبر ضد الألم. ثم رحل إلى مصر، ومع أنه كان مطيعاً لله الذي وضع عليه مثل هذه التجارب، فقد أخذت منه امرأته، ورآها أهينت بسبب مجيئه إلى مصر، وتحمل آلاماً (نفسية) أسوأ من الموت، إذ ضُرب في أعز ما لديه (وهو شرف امرأته المحبوبة). قل لي أي شر أكثر

إيلاماً — بعد أعمال فاضلة كثيرة — أن يرى المرأة التي قد ارتبطت به بناموس الزواج قد سُلبت بتروة إنسان بربري، واقتيدت بمهانة إلى قصر الملك؟

٦- ولـــو أن هذا الأمر لم يتحقق (أي لم يمس فرعـــون زوجته) لكنه على الأقل اصطبر له واحتمل بكل نبل. فلا البلايا جعلته يتعثر ولا الغنى جعله ينتفخ، بل في مختلف الظروف احتفظ بنفس سوية. وعندما تم وعده بابن، ألم تكن هناك ألف عقبة يقترحها العقل؟ فإذ قد أذعن لكل ما يقوله الله، وإذ قد أسكت كل اضطراب يحدث (في ذهنه)، فإن إيمانه تلألأ.

٧- لكن عندما تلقى أمراً من الله بذبح ابنه، ألم يأخذه سريعاً كمن يقوده إلى عش الزوجية، كمن يســـلم العروس إلى عريسها؟ متخطياً حدود الطبيعة ومتحرراً من الطبيعة البشرية، فقدم ذبيحة جديدة وعجيبة، مجاهداً بمفرده بغير معونة من زوجته، أو خادم له، أو أحد أتباعه.

٨- في الواقـــع إن إبراهيم كان يعلم جيداً خطورة الأمر وعظم العقبة وشـــدة القتال. لهذا السبب واجه النضال وحده، وركض وحارب واشتهر اسمه.

أي كاهن علّمه هذا؟ أو أي معلم أو نبي؟ لا أحد، لكن لأنه كانت له نفس مهيأة حسناً فقد أتاحت له أن يواجه هذا كله (برباطة جأش).

٩- هل وجد نوح كاهناً أو معلماً أو مرشداً؟ هذا الذي انفرد وحده سائراً في طريق مناقض للأرض كلها التي فســـدت بالشر، صانعاً الفضيلة فخلص نفسه ومعه آخرين من الغرق الذي كان يهددهم؟! بأي طريق صار باراً؟ بأي طرق أدرك الكمال؟ أي كاهن وأي معلم كان له؟ لا أحد يستطيع أن يقول أنه كان له كاهن أو معلم.

١٠- وبالرغم من أن حاماً أبنه كانت فضيلة ابيه العملية هي معلمه الدائم، وكان يمكنه إذ رأى الحوادث بعينيه أن يســـتخلص دروساً من كارثة الطوفان ونهاية الشر، لكنه كان شريراً تجاه والده فاســـتهزأ بعريه وعرّضه للاستهزاء العام. انظر كيف يلزم أن تكون للإنسان في كل الظروف نفس مهيأة حسناً؟

١١- قل لي وماذا عن أيوب؟ أي أنبياء أمكنه أن يسمع لهم؟ أو أي تعاليم أستطاع أن ينتفع بها؟ لا يوجد.

ومع أنه لم يجد عوناً من هذا القبيل، إلا أنه أعطى مثالاً لفضيلة تامة وضرورية جداً،لأنه،ولو أنه كان يملك خيرات (وفيرة) ، فهذه كانت ليتشارك بها مع من كانوا في احتياج. وليس فقط ماله، بل وبذل صحته ذاتها.

١٢- فهو في الواقع استقبل الغرباء في بيته، وكان مترله يخصهم أكثر مما يخصه. وقد حمى — بقواه الطبيعية — الذين ظلموه. وبكلامه الرقيق وفطنته سد أفواه السفهاء وكان كملاك في كل تصرفاته.

١٣- تأمل، إن السيد المسيح يقول: «**طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ**» (**مت٥:٣**)، وأيوب نفسه حققها عملياً فقال: «**إِنْ كُنْتُ رَفَضْتُ حَقَّ عَبْدِي وَأَمَتِي فِي دَعْوَاهُمَا عَلَيَّ، فَمَاذَا كُنْتُ أَصْنَعُ حِينَ يَقُومُ اللهُ؟ وَإِذَا افْتَقَدَ فَبِمَاذَا أُجِيبُهُ؟ أَوَلَيْسَ صَانِعِي فِي الْبَطْنِ صَانِعَهُ،وَقَدْ صَوَّرَنَا وَاحِدٌ فِي الرَّحِمِ؟**» (**أي٣١:١٣-١٥**). والسيد المسيح يقول أيضاً:«**طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ، لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ** » (**مت٥:٥**). من بلغ وداعة ذاك الذي قال عنه عبيده بسبب حبهم له « **مَنْ يَأْتِي بِأَحَد لَمْ يَشْبَعْ مِنْ طَعَامه؟**» (**أي٣١:٣١**)[8]

١٤- «**طُوبَى لِلْحَزَانَى**(للباكين)،**لأَنَّهُمْ يتعزَّوْنَ.** » (**مت٥:٤**)؛ وقد اختبر أيوب هذه التعزية الداخلية. أنصت ماذا يقول: «**إِنْ كُنْتُ قَدْ كَتَمْتُ كَالنَّاسِ ذَنْبِي لإِخْفَاءِ إِثْمِي فِي حِضْنِي.إِذْ رَهِبْتُ جُمْهُوراً غَفِيراً، وَرَوَّعَتْنِي إِهَانَةُ الْعَشَائِرِ، فَكَفَفْتُ وَلَمْ أَخْرُجْ مِنَ الْبَابِ!**» (**أي٣١:٣٣؛ ٣٤**)؛ وإنسان له مثل هذه الدوافع، من الواضح أنه بكى بغزارة على خطئه.

١٥- «**طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعِطَاشِ إِلَى الْبِرِّ**» (**مت٥:٦**).

انظر بأي كمال حقق هذا: «**هَشَّمْتُ أَضْرَاسَ الظَّالِمِ، وَمِنْ بَيْنِ أَسْنَانِه خَطَفْتُ الْفَرِيسَةَ**» (**أي٢٩:١٧**)،«**لَبِسْتُ الْبِرَّ فَكَسَانِي. كَجُبَّةٍ وَعِمَامَةٍ كَانَ عَدْلِي**» (**أي٢٩:١٤**).

«**طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ،لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ**». (**مت٥:٧**) وهو لم يكن فقط رحوماً بفضل ثروته في كسائه لمن كانوا عرايا، وإطعامه لمن كانوا جياعاً، وإقامته حق الأرملة وإحاطته لليتيم بكل اهتمام، وتلطيفه لكل عاهات الطبيعة بكلماته الصالحة، بل لرقة نفسه تجاه الألم.

١٦- قال أيوب: «**أَلَمْ أَبْكِ لِمَنْ عَسَرَ يَوْمُهُ؟ أَلَمْ تَكْتَئِبْ نَفْسِي عَلَى الْمِسْكِينِ؟**» (**أي٣٠:٢٥**) كما لو كان أباً للكل: أمام بلايا كل واحد منهم؛ فإنه كان يوزع (خيرات) للبعض، ويبكي على البعض، ويخفف عن من كانوا في الضيق، سواء بكلماته أو بأعماله أو بعطفه. . إنه كان ميناءاً متاحاً للجميع.

٨- جاءت هذه الآية في النص هكذا: «من يعطينا أن نشبع من لحمه؟» ولكني آثرت تسجيل النص البيروتي هنا ولذا لزم التنويه.

١٧- «**طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ، لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللهَ.**» (**مت٥: ٨**)؛ وهذا قد تحقق له بطريقة فائقة، واسمع الله وهو يشهد له بقوله: « **لأَنَّهُ لَيْسَ مِثْلُهُ فِي الأَرْضِ! رَجُلٌ كَامِلٌ وَمُسْتَقِيمٌ يَتَّقِي اللهَ وَيَحِيدُ عَنِ الشَّرِّ.**» (**أي٢: ٣**).

١٨- «**طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ الْبِرِّ،لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ.**» (**مت٥: ١٠**) وهذه كانت أيضاً مصدراً فائضاً للحروب والمكافآت، لأن الذي كان يطارده ليس البشر بل الشيطان. رئيس الأشرار كان يهاجمه إذ قد نفذّ فيه كل مكائده وانقض عليه وطرده من بيته ووطنه، ودفعه ليجلس على الرماد ونزع منه كل غناه ومقتنياته وأولاده بل وصحته، وسلّمه إلى جوع شديد جداً. بعد هذا فإن الشيطان هيج عليه بعض أصدقائه الذين اندفعوا عليه عمداً وفتحوا جروح نفسه من جديد.

١٩- «**طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَيَّرُوكُمْ وَطَرَدُوكُمْ وَقَالُوا عَلَيْكُمْ كُلَّ كَلِمَةٍ شِرِّيرَةٍ، مِنْ أَجْلِي، كَاذِبِينَ. اِفْرَحُوا وَتَهَلَّلُوا، لأَنَّ أَجْرَكُمْ عَظِيمٌ فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُمْ هكَذَا طَرَدُوا الأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ**» (**مت٥: ١١-١٢**). في الواقع إن أيوب تلذذ جداً بهذه الطوبى، إذ أن الذين أحاطوا به آنذاك افتروا عليه بقولهم أن عقوبته كانت أقل مما تستوجبها أخطاؤه، وابتلوه باستجواب مطوّل وأحاديث مليئة بالأكاذيب وتهم ملفقة.

٢٠- لكن عندما أوشك أصدقاؤه على الهلاك، فإنه خلصهم من الغضب الإلهي دون أن يحفظ لهم أي ضغينة من كل ما قالوه ضده. وهكذا أتم وصية « **أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ،**» (**مت٥: ٤٤**) وهو في الواقع قد أحبهم وصلى لأجلهم وحول عنهم الغضب الإلهي ومحا خطيتهم، مع أنه لم يسمع نبياً ولا كارزاً ولا كاهناً ولا معلماً ولا أوصاه أحد بالفضيلة.

٢١- هل ترى كيف كانت زوجته نبيلة، كيف اعتمدت على نفسها في ممارسة الفضيلة، حتى وإن لم تجد من يحيطها بالعطف، ولم يكن أحد من أسلافه صالحين، بل كانوا راسخين في شر عظيم، إذ يقول بولس الرسول عن جده عيسو: « **الَّذِي لأَجْلِ أَكْلَةٍ وَاحِدَةٍ بَاعَ بَكُورِيَّتَهُ. الَّذِي لأَجْلِ أَكْلَةٍ وَاحِدَةٍ بَاعَ بَكُورِيَّتَهُ.**» (**عب١٢: ١٦**).

الفصل الرابع عشر

هل عثرت النفوس بسبب الاضطهادات في العصر الرسولي؟

وجدت عثرات كثيرة في أيام الرسل وتأثر بها كثير من الناس وهلكوا، كما تعرض الكارزون للاضطهادات والموت.

١ - قل لي: ماذا حدث في أيام الرسل؟ ألم تحدث لهم بلايا وعثرات واضطهادات مشابهة؟ اسمع ما يقوله بولس: «**أَنْتَ تَعْلَمُ هَذَا أَنَّ جَمِيعَ الَّذِينَ فِي أَسِيَّا ارْتَدُّوا عَنِّي، الَّذِينَ مِنْهُمْ فِيجَلُّسُ وَهَرْمُوجَانِسُ**»(**٢تي١: ١٥**).

ألم تكن السجون مقراً للكارزين؟ ألم يثقلوا بالقيود؟ ألم يحتملوا أسوأ البلايا من الأقارب والغرباء؟ ألم تدخل بعد انتقالهم الذئاب الخاطفة واحتلت أماكنهم في الحظيرة؟ ألم يشر بولس الرسول إلى هذا عندما استدعى الأفسسيين إلى ميليتس؟

٢ - «**لأَنِّي أَعْلَمُ هَذَا: أَنَّهُ بَعْدَ ذَهَابِي سَيَدْخُلُ بَيْنَكُمْ ذِئَابٌ خَاطِفَةٌ لاَ تُشْفِقُ عَلَى الرَّعِيَّةِ. وَمِنْكُمْ أَنْتُمْ سَيَقُومُ رِجَالٌ يَتَكَلَّمُونَ بِأُمُورٍ مُلْتَوِيَةٍ لِيَجْتَذِبُوا التَّلاَمِيذَ وَرَاءَهُمْ**»(أع**٢٠: ٢٩-٣٠**). ألم يسبب له اسكندر النحاس شروراً كثيرة (٢تي٤: ١٥)؟ إذ هاجمه من كل الجوانب وحاربه، وتتبعه بالضيقات وأثار ضده حرباً عنيفة، حتى أن بولس الرسول حذر تلميذه منه قائلاً: «**فَاحْتَفِظْ مِنْهُ أَنْتَ أَيْضاً لأَنَّهُ قَاوَمَ أَقْوَالَنَا جِدّاً.**» (**٢تي٤: ١٥**).

٣ - ألم يَفسد إيمان أهل غلاطية بواسطة بعض الإخوة الكذبة؟ في بدء الخدمة ظهر إستفانوس، هذا الإنسان الذي فاضت بلاغته كالأنهار وأبكم كثيرين مبكتاً الألسن اليهودية الآثمة، و لم يقدر أحد على مقاومته، ونصب تذكاراً لامعاً وأحرز انتصاراً بهياً.

٤ - كان هو الإنسان النبيل المملوء حكمة. استفادت منه الكنيسة كثيراً رغم قصر مدة خدمته. عند كرازته ألقوا القبض عليه مع آخرين وحوكم ورجم كمجدف.

وماذا عن يعقوب الرسول؟ ألم يقتله هيرودس ليرضي اليهود، وكان ذلك في البداية؟ فرحل عمود الحياة هذا وقاعدة الحق.

٥- كم عثر آنذاك أمام هذه الأحداث؟ لكن الثابتين (حرفياً الواقفين) ظلوا ثابتين، وسيظلوا هكـــذا. اسمع ما يقوله بولس وهو يكتب إلى أهل فيلبي: «**ثُمَّ أُرِيدُ أَنْ تَعْلَمُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنَّ أُمُــورِي قَدْ آلَتْ أَكْثَرَ إِلَى تَقَدُّمِ الإِنْجِيلِ، حَتَّى إِنَّ وُثُقِي صَارَتْ ظَاهِرَةً فِي الْمَسِــيحِ فِي كُلِّ دَارِ الْوِلاَيَةِ، وَفِي بَاقِي الأَمَاكِنِ أَجْمَعَ. وَأَكْثَرُ الإِخْوَةِ، وَهُمْ وَاثِقُونَ فِي الرَّبِّ بِوُثُقِي، يَجْتَرِئُونَ أَكْثَرَ عَلَى التَّكَلُّمِ بِالْكَلِمَةِ بِلاَ خَوْفٍ**»(**في١: ١٢-١٤**).

٦- أترى هذه الشـــجاعة؟ أتنظر هذه الثقة؟ أترى القوة الروحية وطريقة التفكير المسيحي (الســليم)؟ لقد رأوا معلمهم في السجن مقيداً، مجبر على استداد فمه للكرازة، مضروباً، يعاني أســوأ العذابات، وليس فقط أهم لم يعثروا ويتأثروا، بل بالأكثر صاروا أكثر حماساً، وأعطتهم آلام معلمهم مزيداً من الاندفاع نحو الحروب (الروحية).

٧- لست أنكر أن البعض هلكوا. فمن الطبيعي أن ينهار الكثيرون أمام هذه الأحداث، لكن ما ســبق أن قلته، ولن أتوقف عن تكراره وســأقوله الآن أيضاً، إنه من العدل أن يُرجع هؤلاء المعثرين ضعفهم إلى أنفســهم ذاتها، وليس إلى طبيعة الأحداث. لقد ترك لنا السيد المسيح هذا الميراث المشــترك إذ قال لنا: « **فِي الْعَالَمِ سَــيَكُونُ لَكُمْ ضِيقٌ** » (**يو١٦: ٣٣**)؛ «**وَتُسَاقُونَ أَمَامَ وُلاَةٍ وَمُلُوكٍ**»(**مت١٠: ١٨**)، و«**تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَظُنُّ كُلُّ مَنْ يَقْتُلُكُمْ أَنَّهُ يُقَدِّمُ خِدْمَةً لِلَّهِ**»(**يو١٦: ٢**)، فباطلاً تعترض على وجود أناس متعثرين، لأن الضيق مستمر على الدوام.

٨- ولمــاذا أذكر تجارب الرســل؟! كم من أناس تعثروا أمــام صليب ربنا وصاروا أكثر شراً وســفاهة؟ في مرورهم أمامه كانوا يســتهزئون به ويقولون:«**يَا نَاقِضَ الْهَيْكَلِ وَبَانِيَهُ فِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ، خَلِّصْ نَفْسَــكَ! إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَانْزِلْ عَنِ الصَّلِيبِ!. وَكَذلِكَ رُؤَسَــاءُ الْكَهَنَةِ أَيْضاً وَهُمْ يَسْــتَهْزِئُونَ مَعَ الْكَتَبَةِ وَالشُّــيُوخِ قَالُوا: خَلَّصَ آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُهُ فَمَا يَقْــدِرُ أَنْ يُخَلِّصَهَا! إِنْ كَانَ هُوَ مَلِكَ إِسْــرَائِيلَ فَلْيَنْزِلِ الآنَ عَــنِ الصَّلِيبِ فَنُؤْمِنَ بِهِ!**» (**مت٢٧: ٣٩-٤٢**).

٩- مع هذا لا يمكن أن يكون الصليب عذراً لهم، لأن اللص سيدين كل الناس الذين من هذا النوع، لأنه ألقى نظرة على المصلوب وليس أنه لم يعثر وحسب، بل وجد فيه علّة للبحث عن الحكمة الحقة. وبعدما تخطى البشريات ارتفع بجناح الإيمان وتأمل في الآتيات.

١٠- لم يعثر اللص بالرغم من رؤيته للسيد المسيح مصلوباً مهاناً، يشرب الخل ويُبصق عليه، يستهزئ به كل الشعب وحكموا عليه بالموت. فهو إذ رأى الصليب (والمصلوب) والمسامير في يديه والشعب الفاسد يستهزئ به، سار حسب الطريق المستقيم قائلاً:

«اذْكُرْنِي يَا رَبُّ مَتَى جِئْتَ فِي مَلَكُوتِكَ» (لو٢٣: ٤٢).

١١- لقد أبكم الشاتمين معترفاً بخطاياه! وتأمل القيامة دون أن يرى الموتى وهم يقومون ولا رأى البرص يطهرون أو العرج يمشون أو البحر مبكماً أمام المسيح، ولا الشياطين يُطردون ولا الأرغفة تتكاثر وبقية المعجزات التي رآها اليهود ومع هذا صلبوا المسيح.

١٢- إذ رآه اللص اعترف به إلهاً وتذكر ملكوته وتأمل الأبدية، أما اليهود على العكس فقد رأوه يجري المعجزات، وكان لهم امتياز سماع تعاليمه بكلماته وأعماله، وليس فقط أنهم لم ينتفعوا به، بل انحدروا إلى أعماق الجحيم لهلاكهم برفعهم إياه على الصليب.

١٣- هـا أنت ترى أن الجهال وغير المكترثين لم يجنوا أية منفعة مما هو مفيد، لكن من هم مهيأون حسناً ويقظون، فقد جنوا منفعة عظيمة من الأحداث التي أعثرت غيرهم. يمكن تأكيد هذا بالنسبة ليهوذا وبالنسبة لأيوب.

في الواقع إن يهوذا ما كان ليخلص ولا حتى بواسطة المسيح الذي هدى الأرض إلى الطريق المستقيم، وأيوب لم يصبه أي ضرر من جانب الشيطان مع أنه (الشيطان) سبب هلاك كثيرين.

١٤- أحدهم (أيوب) عانى بلايا كثيرة واستحق إكليلاً، والآخر (يهوذا) الذي رأى معجزات بل عملها بنفسه، إذ أقام أمواتاً وطرد شياطيناً، لأنه هو أيضاً نال نفس السلطان، وقد سمع أموراً كثيرة عن الملكوت وجهنم وشارك في العشاء السري إذ كان حاضراً في الوليمة التي تُلهم مخافة تقوية، وقد أنعم عليه بنفس الإحسان ونال نفس الاهتمام كبطرس ويعقوب ويوحنا وكثيرين غيرهم.

١٥- لأنه غير الاهتمام والتلطف الذي كان زائداً فقد أسند إليه صندوق الفقراء. هذا الإنسان أصيب بعد ذلك بالضلال، وبعد أن قبل الشيطان بالطمع، صار خائناً بحسب نواياه (السيئة)، واقترف أعظم جريمة إذ باع هذا الدم (الزكي) بثلاثين من الفضة وسلّم معلمه بقبلة غاشة.

١٦- يا ترى كم تظن عدد الذين أُعثروا أمام الخيانة التي أتت من مثل هذا التلميذ؟ وساكن الصحراء (يوحنا المعمدان) الذي هو ثمرة امرأة عاقر، ابن زكريا، والذي أُعتبر جديراً لعماد هذه الرأس المقدسة، وأن يكون بشير سيده، عندما كان في السجن وذُبح وكان قتله ثمناً لرقصة خليعة، كم من الناس أعثروا آنذاك؟

١٧ – ولماذا أقول آنذاك؟ كم من أناس – بعدما مضى كل هذا الوقت الطويل – عند سماعهم لهـــذه القصة يعثرون الآن أيضاً؟ ولماذا الكلام عن يوحنا (المعمدان) وعن الســـجن، وعن هذا القتل، لماذا أتوقف عند العبيد بينما يليق الاندفاع نحو السيد؟

الفصل الخامس عشر

الجهلاء عثروا حتى بأعظم الخيرات،

أقصد الصليب الذي به تم خلاص العالم.

١- ألم يكن صليب المسيح عثرة لكثيرين وهو الذي أنهض العالم (من نوم الغفلة) وبدد الضلال وحول الأرض إلى سماء، وكسر قوى الموت، وجعل الجحيم عقيماً، ودمر قلعة إبليس، وسد أفواه الشياطين، وجعل البشر ملائكة، وخرب المذابح وهدم الهياكل (الوثنية)، وغرس هذا الدين الجديد والعجيب، وكان هو الصانع لإحسانات كثيرة سببت احتراماً مهيباً وعظيماً، وكان صعب اقتناؤها؟

٢- ألم يبشر به بولس ويشهد لكونه عثرة قائلاً: «**وَلَكِنَّنَا نَحْنُ نَكْرِزُ بِالْمَسِيحِ مَصْلُوباً: لِلْيَهُودِ عَثْرَةً، وَلِلْيُونَانِيِّينَ جَهَالَةً!**» (**١كو١: ٢٣**).

أخبرني: هل كان ينبغي ألا يوجد الصليب، ولا نقدم هذه الذبيحة لأنها كانت عثرة لمن هلكوا آنذاك وبعد ذلك وفي كل عصر؟

٣- من سيكون جاهلاً وغبياً جداً ليقول هذا؟ وأيضاً لا يلزم أن نضع في الاعتبار من قد عثروا ولو أنهم كثيرون، بل من قد خلصوا ومن تم اقتيادهم إلى الطريق المستقيم، ومن قد انتفعوا بمثل هذه الحكمة. ألم يلزم القول: ما الذي يهم فيمن قد عثروا؟ لأنه لا ينبغي أن يُعزى الخطأ إلا إليهم. والأمر هو هكذا الآن أيضاً.

٤- في الواقع إن العثرة لا تأتي من طبيعة الصليب، بل من حماقة الذين عثروا. لهذا السبب أضاف بولس قوله: «**وَأَمَّا لِلْمَدْعُوِّينَ: يَهُوداً وَيُونَانِيِّينَ فَبِالْمَسِيحِ قُوَّةِ اللهِ وَحِكْمَةِ اللهِ**» (**١كو١: ٢٤**). لأن الشمس تؤذي عيون المرضى، فماذا؟ ألا ينبغي أن توجد الشمس؟ العسل يبدو مراً لمن هم مرضى، فهل ينبغي أن يختفي من الحياة اليومية؟ ألم يكن الرسل أنفسهم رائحة موت وتلد الموت للبعض، وللبعض الآخر رائحة حياة تلد حياة؟ هل كان يلزم بسبب المائتين ألا ينتفع الأحياء من مثل هذا العون العظيم؟

٥- كم هو عدد الذين تعبوا من مجيء المسيح نفسه، وهو خلاصنا ومصدر الخيرات والحياة وأعاجيب لا حصر لها؟ كم بسببه تجردوا من العذر والغفران؟ ألم تسمع ما قاله المسيح بخصوص اليهود: «**لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ جِئْتُ وَكَلَّمْتُهُمْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ خَطِيَّةٌ، وَأَمَّا الآنَ فَلَيْسَ لَهُمْ عُذْرٌ فِي خَطِيَّتِهِمْ**»(**يو ١٥ : ٢٢**)ج.

٦- فماذا؟ هل كان يلزم ألا يأتي المسيح بسبب من لم ينتفعوا من هذا المجيء؟ من يجرؤ على قول هذا؟ لا أحد على الإطلاق يقول هذا، حتى ولو كان في منتهى الحماقة.

وأيضاً قل لي: كم عدد الناس الذين صار لهم الكتاب المقدس سبب عثرة؟ كم من هرطقات وجدت علتها منه؟ هل كان ينبغي أن يتلاشى الكتاب بسبب من قد عثروا؟ أم كان يلزم ألا يُعطى منذ البدء؟ بالتأكيد كان يلزم أن يُعطى لمن سينتفعوا منه. أما الذين قد عثروا، فلن أتوقف عن أن أسوق نفس الكلام، وهو أنه ليعزوا (ينسبوا) العثرات إلى أنفسهم. أما الذين انتفعوا بأعظم الفوائد كانوا سيعانون من خسارة عظيمة لو أنه بسبب جهل وإهمال الآخرين كانوا قد حُرموا من نوال ما كان مفيداً لهم.

لا تتكلموا عن الذين هلكوا، لأنه كما قلت في نص سابق، مَنْ لم يؤذ نفسه، لا يمكن أن يعاني ضرراً من جانب الآخرين، حتى لو كانت حياته في خطر.

الفصل السادس عشر

لا أحد يؤذي من لم يؤذي نفسه.

١ – قـــل لي: بمـــاذا تضرر هابيل وهو الذي قُتل بيد أخيه وعـــاني من موت مبكر وعنيف؟ ألم يجني بالأحرى منفعـــةً، إذ قد توّج بإكليل لامع جداً؟ بماذا تضرر يعقوب وهو الذي عانى من اضطهادات كثيرة من جانب أخيه وصـــار منفياً هارباً بلا وطن وعبداً وخارت قواه من الجوع؟

٢ – بماذا تضرر يوسف الذي كان أيضاً بلا وطن وبلا بيت، سجيناً مقيداً بالسلاسل، وعبداً ومتعرضاً لأســـوأ المخاطر، وكان بين أهله كالغريب وعانى من وشـــايات كثيرة؟ بماذا تضرر موســـى وهو الذي رُجم (بالنية) ألف مرة من جمع عظيم جداً، الذين أحسن إليهم نصبوا له الفخـــاخ؟ بماذا تضرر الأنبياء، وهم الذين عانوا من بلايا كثيرة من جانب اليهود؟ بماذا تضرر أيوب وهو الذي هاجمه الشيطان بمكائد كثيرة؟

٣ – وبماذا تضرر الثلاثة فتية؟ وبماذا تضرر دانيال وهو الذي تعرض لأخطار عظيمة من جهة حياته، ومن جهة حريته؟ بماذا تضرر إيليا وهو الذي عاش في فقر مدقع، مطروداً، هارباً، ساكناً الصحاري، منفياً وفارّاً بلا انقطاع؟ بماذا تضرر داود وهو الذي عاني من معاملات سيئة كثيرة من جانب شـــاول، وفيما بعد من جانب ابنه (أبشالوم)؟ ألم يتلألأ أكثر لاحتماله أسوأ البلايا عن الأوقات التي فيها نعم بالهدوء؟

٤ – بماذا تضرر يوحنا المعمدان بســـبب قطع رأســـه؟ وبماذا تضرر الرسل إذ قُطعت رؤوس البعض منهم، والبعض الآخر أسلموا لعذابات مختلفة؟ بماذا تضرر الشهداء وهم الذين تمزعت نفوسهم من البلايا الكثيرة التي أصابتهم؟ ألم يلمعوا أكثر عندما تم تهديدهم، وعندما نُصبت لهم الفخاخ، وعندما عانوا أسوأ العذابات، فصمدوا لها بنبل؟

الفصل السابع عشر

الصليب دليل على عظم اهتمام وصلاح وحب الله.

١ – عندما نحتفل جميعاً بربنا لكل الأسباب الأخرى، ألا نحتفل بالأكثر ممجدين إياه لأنه قد أصابنا باندهاش أمام الصليب، وأمام هذا الموت الممتلئ بالخزي واللعنة؟ أليس القديس بولس في كل مناسبة يُظهر لنا موت المسيح كأعظم دليل على حبه لنا؟ ماذا كان حال البشر الذين مات لأجلهم؟ إذ قد توقف بولس الرســـول عن الحديث عن السماء والأرض والبحر وكل الأشياء الأخرى التي صنعها المســـيح لأجل فائدتنا (منفعتنا) وإراحتنا، يرجع في كل حين إلى الصليب قائلاً:

٢ – «**وَلَكِنَّ اللهَ بَيَّنَ مَحَبَّتَهُ لَنَا لأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَســـيحُ لأَجْلِنَا.**» (رو٥:٨)؛ ومن هذه الحقيقة يقترح لنا أعظم الآمال بقوله لنا: «**لأَنَّهُ إِنْ كُنَّا وَنَحْنُ أَعْدَاءٌ قَدْ صُولِحْنَا مَعَ اللهِ بِمَوْتِ ابْنِهِ، فَبِالأَوْلَى كَثِيراً وَنَحْنُ مُصَالَحُونَ نَخْلُصُ بِحَيَاتِهِ**». (رو٥: ١٠).

٣ – ثم أليس بذلك يفتخر ويزداد اشـــتياقاً ويطفر ويطير من الفرح إذ يكتب لأهل غلاطية قائلاً: «**فَحَاشَـــا لِي أَنْ أَفْتَخِرَ إِلاَّ بِصَلِيبِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ،**» (**غلا٦: ١٤**). لماذا تندهش إن كان بســـبب هذا يطفر بولس ويطير من الفرح، إذ أن المسيح نفسه الذي احتمل هذه الآلام يدعوها مجداً له (عندما يقول):«**أَيُّهَا الآبُ، قَدْ أَتَتِ السَّـــاعَةُ. مَجِّـــدِ ابْنَكَ لِيُمَجِّدَكَ ابْنُكَ أَيْضاً**» (**يو١٧: ١**).

٤ – والتلميذ (يوحنا) الذي كتب هذا قال:

« **لأَنَّ الـــرُّوحَ الْقُدُسَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أُعْطِيَ بَعْدُ، لأَنَّ يَسُـــوعَ لَـــمْ يَكُنْ قَدْ مُجِّدَ بَعْدُ.**» (**يـــو٧: ٣٩**). وهو هنا يدعو الصليب مجداً، لكن عندما أراد إظهار محبة المســـيح عن ماذا تكلم؟ هل تكلم عن معجزاته وعجائبه؟ هل تكلم عن بعض الآيات؟ لا شـــيء من هذا على الإطلاق، بل ذكر الصليب بقوله: «**لأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ.**» (يو٣: ١٦).

٥- وهكذا أيضاً يقول بولس:

«اَلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِه بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ، كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أَيْضاً مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ؟!» (رو٨: ٣٢)، وعندما يدعونا إلى التواضع، فمن هناك يستحثنا عليه بقوله:

« فَإِنْ كَانَ وَعْظٌ مَا فِي الْمَسِيحِ. إِنْ كَانَتْ تَسْلِيَةٌ مَا لِلْمَحَبَّةِ. إِنْ كَانَتْ شَرِكَةٌ مَا فِي الرُّوحِ. إِنْ كَانَتْ أَحْشَاءٌ وَرَأْفَةٌ، فَتَمِّمُوا فَرَحِي حَتَّى تَفْتَكِرُوا فِكْراً وَاحِداً، وَلَكُمْ مَحَبَّةٌ وَاحِدَةٌ بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، مُفْتَكِرِينَ شَيْئاً وَاحِداً، لاَ شَيْئاً بِتَحَزُّبٍ أَوْ بِعُجْبٍ، بَلْ بِتَوَاضُعٍ، حَاسِبِينَ بَعْضُكُمُ الْبَعْضَ أَفْضَلَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ». (في٢: ١-٣).

٦- ثم يضيف في هيئة نصيحة قوله: **«فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هَذَا الْفِكْرُ الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضاً: الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً للهِ، لَكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذاً صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِراً فِي شِبْهِ النَّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ، مَوْتَ الصَّلِيبِ».** (في٢: ٥-٨).

٧- وحينما يدعو إلى المحبة يضع هذا المثال أيضاً في الوسط قائلاً:

«وَاسْلُكُوا فِي الْمَحَبَّةِ كَمَا أَحَبَّنَا الْمَسِيحُ أَيْضاً وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِنَا، قُرْبَاناً وَذَبِيحَةً للهِ رَائِحَةً طَيِّبَةً »أف٥: ٢).

ومن أجل تحقيق الترابط الجميل بين الرجال ونساءهم قال هكذا:

«أَيُّهَا الرِّجَالُ، أَحِبُّوا نِسَاءَكُمْ كَمَا أَحَبَّ الْمَسِيحُ أَيْضاً الْكَنِيسَةَ وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِهَا،» (أف٥: ٢٥).

٨- والمسيح نفسه ليُظهر كم أن الصليب كان شغله الشاغل، وكم أنه كان يقدّر الألم، عندما قال له بطرس – أول الرسل وقائد خورسهم – عن جهل: **«حَاشَاكَ يَا رَبُّ! لاَ يَكُونُ لَكَ هَذَا!»** (مت١٦: ٢٢)، فاسمع ما دعاه به الرب قائلاً له: **« اذْهَبْ عَنِّي يَا شَيْطَانُ. أَنْتَ مَعْثَرَةٌ لِي»** (مت١٦: ٢٣)، وهنا أظهر المسيح بالتوبيخ الشديد والعنيف لبطرس عظم الأهمية التي كان يعلقها على الصليب.

٩- إنه أراد أن تتم القيامة في خفية عن الكل وسراً، وترك إلى الدهور التالية مسئولية برهنتها. لكن الصليب كان في وسط المدينة في قلب العيد، ووسط شعب اليهود، إذ عُقدت له محاكمتان، واحدة من اليهود والأخرى من الرومان. وأثناء العيد كان كل العالم (اليهودي) مجتمعاً، وفي وضح النهار، وأمام الأرض كلها تكبد هذا العذاب.

١٠- وحيث أن الذين كانوا حاضرين هم فقط الذين استطاعوا رؤية ما حدث، فإنه أعطى أمراً للشمس أن تعلن هذا في كل أنحاء الأرض باحتجابها، و لم يخشَ الرب أن يصنع هذا. وبالتأكيد ما بادرت بقوله هو أن هذا كان عثرة لكثيرين، ولكن لا ينبغي أن نفكر فيمن عثروا، بل فيمن خلصوا ومن أتموا أعمال الفضيلة.

١١- لماذا تندهش إن كان الصليب في الحياة الحاضرة بهياً جداً، حتى أن المسيح دعاه مجداً وبولس افتخر به؟ في ذلك اليوم الرهيب والمرعب عندما يأتي مُظهراً مجده، عندما يأتي في مجد أبيه ،عندما يقيم المنبر الرهيب، عندما يظهر الجنس البشري كله (أمامه)، عندما تغلي أنهار النار، عندما تنزل معه جموع الملائكة والقوات العلوية، عندما توجد ربوات المكافآت، عندما يلمع البعض كالشمس والبعض الآخر كالنجوم.[٩]

١٢- عندما تقف جماعات الشهداء وخوارس الرسل وفرق الأنبياء، عندما يُقاد جمع البشر الشجعان علانية. آنذاك — نعم آنذاك — في هذا المنظر الذي يبهر الأبصار، في هذا المشهد الذي علي الملأ. ها هوذا يحمل صليبه الذي يشع أنواراً براقة. والمسيح يقول: «**وَلِلْوَقْتِ بَعْدَ ضِيقِ تِلْكَ الأَيَّامِ تُظْلِمُ الشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ لاَ يُعْطِي ضَوْءَهُ، وَالنُّجُومُ تَسْقُطُ مِنَ السَّمَاءِ، وَقُوَّاتُ السَّمَاوَاتِ تَتَزَعْزَعُ. ٣٠وَحِينَئِذٍ تَظْهَرُ عَلاَمَةُ ابْنِ الإِنْسَانِ فِي السَّمَاءِ. وَحِينَئِذٍ تَنُوحُ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ، وَيُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ آتِياً عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ بِقُوَّةٍ وَمَجْدٍ كَثِيرٍ.» (مت٢٤: ٢٩؛ ٣٠)**.

١٣- أيها الألم الذي تلألأ، أيها الصليب الذي تألق!

الشمس تظلم والنجوم تتساقط كأوراق الشجر، أما الصليب فيلمع ببهاء أكثر منهم كلهم ويحتل السماء كلها. أترى كيف يتهلل به الرب؟ أتنظر كيف يكشف عن أن الصليب هو مجده عندما يظهره في ذلك اليوم في مثل هذا البهاء للأرض كلها؟

٩- نظراً للتقسيم الموجود في النص المُترجم منه، جعل بعض المقاطع تبدو غير منسجمة لكي يمكن تلافي هذا بمواصلة القراءة دون النظر إلى التقسيم المصطنع.

الفصل الثامن عشر

هذه الأحداث كانت مكسباً غير قليل للكنيسة.

وأنـــت عندما ترى أن البعض قد عثر مما حدث، تفكر أولاً أن عثرتهم لم تأتي مما حدث، بل من ضعفنا ذاته. والذين لم يختبروا هذه المشـــاعر يظهرون ضعفنا جيداً. ثم فكر في أن كثيرين نالوا بهاءً عظيماً ممجدين الله وشـــاكرين إياه بحرارة رغم هذه الأحداث. لا تنظر إلى مَنْ زلوا، بل إلى من هم صامدون وغير متزعزعين، وظلوا ثابتين، والذين بهذه الطريقة صاروا أكثر قوة. لا تنظر لمن قد انزعجوا واضطربوا، بل لمن يبحرون عبر العواصف، والذين هم أكثر عدداً من الذين خاروا.

وحتى لـــو كان عدد الخائرين أكثر، فإن رجل واحد يتمـــم إرادة الله أفضل جداً من ألف يقترفون الشر.

الفصل التاسع عشر

شهداء كثيرون عاشوا وماتوا في هذا الرجاء.

١ – تفكر في كل من نالوا إكليل الشهادة. البعض منهم جُلدوا والبعض الآخر تم اقتيادهم إلى السجن وآخرون قيدوا بسلاسل كفاعلي شر.

البعـــض طُردوا من وطنهم، والبعض الآخر فقـــدوا ثروتهم، والبعض هاجر إلى بلاد ما وراء الحدود، والبعض جازوا هذا بالخبرة (عملياً)، والبعض الآخر كانوا يتوقعونه.

٢ – في الواقع عندما تم إشهار السيف من غمده وعندما شُحذ، وكان كل يوم يتم تهديدهم، والميتات مع كل أنواع العقوبات والعذابات يتم إعدادها، فإنهم لم ينثنوا و لم يسـلموا، بل ثبتوا على الصخرة غير متزعزعين، ومفضلين احتمال كل شدة على المشاركة في شر من قد تجاسروا على اقتراف مثل هذه الأفعال. و لم يكونوا فقط من الرجال، بل كانوا أيضاً من النساء.

٣ – في الواقع إن النساء خاضوا هذه الحرب وتصرفوا بشجاعة أكثر من الرجال، وليس النساء فقط، بل أيضاً الفتيان والفتيات وكل الأطفال الصغار. قل لي: هل هو شـــيء هيّن أن يكون للكنيســة مثل هذا الجمع العظيم من الشـــهداء؟ لأن كل هؤلاء كانوا شهداء. فليس الذين تم جرهم إلى المحاكم وتلقوا أمراً بالذبح و لم يرضخوا له واحتملوا ما احتملوه من آلام، هم فقط الذين يمكن أن يكونوا شهداء، بل أيضاً الذين قبلوا (ولو بالنية) أن يعانوا أي عذاب في أي مجال كان من أجل إرضاء الله. وإن أردت أن تفحص الأمر بعناية، فالآخرون أحق من الأولين.

٤ – لأنه ليس الأمر سيان: فعندما يهددونك بالقتل وإهدار دمك، فالقبول بالتألم مهما يكون، أجدر من القتل واحتمال نفس العذاب لأجل منفعة لا تساوي هذا. فليس فقط الذين قد ذُبحوا نالوا إكليل الشـــهادة، بل أيضاً الذين كانوا مستعدين له والذين كانوا جاهزين لاحتمال هذه العقوبة.

لقد قلت سابقاً: الذي قد ذُبح لأسباب أقل أهمية هو أيضاً شهيد كامل، وسأجتهد لتوضيح هذا بصوت بولس.

٥- بعد أن بدأ بولس الرســول في تعداد من تلألأ بين القدماء، إذ ذكر أولاً هابيل ثم وصل إلى نوح وإلى إبراهيم واسحق ويعقوب، فإن بولس الطوباوي استمر قائلاً: «**لِذَلِكَ نَحْنُ أَيْضاً إِذْ لَنَا سَحَابَةٌ مِنَ الشُّهُودِ مِقْدَارُ هَذِهِ مُحِيطَةٌ بِنَا**»(**عب١٢: ١**).

٦- لكن لم يُقتل أحد منهم إلا اثنين أو ثلاثة: هابيل ويوحنا المعمدان، أما كل الآخرين فقد ماتوا ميتة طبيعية. ويوحنا نفسه قُتل، ليس لكونه أجبر على تقديم ذبيحة فرفض، ولا لأنه سُحب أمام صنم (ليسجد له فرفض)، بل لمجرد كلمة قالها: « **لاَ يَحِلُّ أَنْ تَكُونَ لَكَ**» (**مت١٤: ٤**) سُجن وكان ضحية لهذه العقوبة.

٧- إن كان الذي نطق بحكم ضد زواج غير شــرعي بأقل مما كان يســتطيعه، لأنه لم يقوّم الفعل الشــرير المقترف، بل فضحه فقط، ولم تكن له قوة على وضع نهاية له، فإن كان الذي قال مجرد كلمة، وتوقف عمله عند هذا الحد، لأن رأسه كانت قد قُطعت يعتبر شهيداً، بل أول الشــهداء، فالذين أصابتهم جروح كثيرة؛ الذين أعدوا أنفسهم للجهاد — ليس ضد هيرودس وحسب — بل ضد سلاطين الأرض كلها والذين لم يقاوموا زواجاً غير شرعي وفقط بل كانوا متكفلين بالدفاع عن شرائع آبائنا وقوانين الكنيسة أمام مَنْ يحتقرونها، الذين كلامهم وتصرفاتهم أظهرت جسارتهم الواثقة، متعرضين يومياً للموت، رجالاً وأطفالاً ونساء، ألا يكون من العدل وضعهم في مصاف الشهداء؟

٨- كما أن إبراهيم، ولو أنه لم يذبح ابنه بالحقيقة، فإنه ذبحه بالنية وسمع من الســماء هذه الكلمة: « **فَلَمْ تُمْســكْ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي**» (**تك٢٢: ١٢**)، كذلك — في كل أمر — عندما تكون النية مُلهمة بالفضيلة، تنال المكافأة بالتمام.

٩- إن كان إبراهيم ذُكر بمزيد من الشــرف لأنه لم يشفق على ابنه، فالذين لم يشفقوا على أنفســهم، تخيل أي أجر سينالونه وهم يخوضون مثل هذا الجهاد، ليس لمدة يوم أو يومين، بل على مدى الحياة كلها، وهم مُلاحقين بإهانات وإســاءات وتهديدات وتشهيرات، وهذا ليس بالأمر الزهيد. لهذا السبب فإن بولس الرسول بإعجاب شديد يشهد في هذه الحالة فيقول:«**مِنْ جِهَةٍ مَشْهُورِينَ (أي يتم التشهير بهم) بِتَعْيِيرَاتٍ وَضِيقَاتٍ، وَمِنْ جِهَةٍ صَائِرِينَ شُرَكَاءَ الَّذِينَ تُصُرِّفَ فِيهِمْ هَكَذَا**» (عب١٠: ٣٣).

١٠- ماذا يقال أيضاً عــن الذين ماتوا وهم يعانون مثل هذه التجارب، وهم يعدوا رجالاً ونساء للجهاد؟ لهذا فإن بولس الرسول معه حق في الإعجاب بهم. كثيرون بذلوا ثروتهم لكي يجد المســجونين والمنفيين بعض الراحة في بليتهم العظمى. وعندما سُــلبت أموالهم قبلوا هذه التجربة بفرح بحســب كلمة الرسول. البعض منهم طردوا من وطنهم، والبعض الآخر طردوا من الحياة (أي ماتوا).

١١- لذلك عند رؤية مثل هذا الغنى والمكســب والغنيمة وقد اُقتيدت إلى الكنيسة، ومثل هذه الكنوز تتراكم، والذين كانوا ضعفاء في السابق صاروا الآن أكثر حرارة من النار، والذين لم يكونوا يغادرون المسارح رحلوا إلى الصحراء جاعلين الوديان والجبال بمثابة كنائس.

وبينما لا يوجد من يقود القطيع (لنفي البطريرك أو الأسقف) فإن الخراف قامت بعمل الرعاة. جنود الرئيس — بفضل جسارتهم الواثقة وشجاعتهم، بكل الغيرة والحماس والتحفظ الذي يليق — قاموا بأداء المهمات المنوطة بالرئيس. ألا تُصاب بالدهشة وتمتلئ بالإعجاب لأعمال الفضيلة التي سببتها الأحداث؟

١٢- لأنه ليس الذين يعيشــون حياة مســتقيمة بل كثيرون من الذين يقضون أوقاتهم في المســارح وميادين ســباق الخيل، الذين تطهروا بحمية نار شديدة، قد تخلوا تماماً عن طيشهم واندفعوا — إن جاز القول — عبر الســيوف مُظهرين أمام الولاة جسارة واثقة، محتقرين البلايا ومستهزئين بالتهديدات، مُظهرين كيف تكون قوة الفضيلة، وكيف يمكن لمن سيوصله الموت حتماً لأعلى السموات بتوبته وندامته (فيكون جديراً بالإقتداء به).

١٣- عندمـــا ترى كثيراً من المكافآت، ومثل هذه الأكاليــل المضفورة، ومثل هذا التعليم منتشراً، أخبرني من أين لك أن تُعثر؟

لقد قلت ولن أكف عن القول إن هلاك من يعثرون شيء يُعزى إليهم (لضعفهم)!. إن حديثنا موجه بكل طريقة لإظهار هذا.

وسأذكر أيضاً مزية أخرى. كم عدد الناس الذين يرتدون قناع التقوى، وكم عدد الذين لهم وداعة كاذبة، وكم عــدد الذين كانوا يعتبرون عظماء ولم يكونوا (في حقيقة الأمر) كذلك، وسقطوا تماماً في الظروف الحالية؟ إن حيل خداعاتهم قد انهارت، وظهروا على حقيقتهم وسقط ما كان يزيفونه ويتراءون به.

١٤ – هذه ليست مزية هينة بل امتياز مُعتبر جداً لمن اهتموا لما فيه فائدتهم من جهة تمييز من . يرتدون جلود الحملان ولا يختلطوا بالذئاب التي تخفت هكذا وسط الحملان الحقيقية. إن الوضع الحالي هو أتون يتيح التمييز بين قطع النقود، فتلك التي من البرونز تذيب الرصاص وتحرق القش وتجعل المواد الثمينة تظهر أكثر قدراً. وهذا ما يبينه بولس الرسول عندما يقول: «**لأَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَيْنَكُمْ بِدَعٌ أَيْضاً لِيَكُونَ الْمُزَكَّوْنَ ظَاهِرِينَ بَيْنَكُمْ.**» (١كو١١:١٩).

الفصل العشرون

حتى في عصر الرسل حدثت أشياء متعبة جداً

١- ليت لا شيئ من كل هذا يعثرك، لا الكاهن الذي في رداءته يتلف عملياً القطيع بشراسة أكثر من شراسة الذئب، ولا من أحد الذين يمارسون السلطة (الكنسية) عندما يبرهن على قسوته الشديدة. وتذكر أنه حدثت أشياء متعبة أكثر من هذه في عصر الرسل.

٢- دعا بولس الرسول من يمارس السلطة (باستبداد) على أنه هو سر الإثم

(٢تس٢:٧)، إذ قد أعطى نفسه للشر تحت كل أشكاله، وقد خسف بكل الناس بشره.

لكنه لم يؤذ أبداً، لا الكنيسة ولا الناس المُمتلئين نبلاً، بل جعلهم يتلألأون ببهاء أقوى. إن كهنة اليهود كانوا من الرداءة والضلال الذي جعل السيد المسيح يوصي بالحذر منهم وعدم الإقتداء بهم.

٣- يقول المخلص:

« عَلَى كُرْسِيِّ مُوسَى جَلَسَ الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ، ٣فَكُلُّ مَا قَالُوا لَكُمْ أَنْ تَحْفَظُوهُ فَاحْفَظُوهُ وَافْعَلُوهُ، وَلكِنْ حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ لاَ تَعْمَلُوا، لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ وَلاَ يَفْعَلُونَ.» (مت٢٣: ٢-٣).

وبالتأكيد، أي شيء يمكن أن يكون أكثر سوءاً من الكهنة الذين مثالهم يسبب هلاك كل من يقتدي بهم؟ لكن ولو أن المسئولين كانوا آنذاك على هذا المستوى فالذين قد تلألئوا والذين تكللوا لم يعانوا أية خسارة بل حصلوا على مزيد من المجد. فلا ينبغي أن نستشيط غضباً أمام الأحداث.

في الواقع إن التجارب الآتية من كل جانب، من القريبين ومن الغرباء لها ثقل النير على من كانوا متيقظين.[١٠]

٤- لهذا السبب فإن بولس الرسول إذ رأى السحب المنذرة بالأخطار التي تكدست على تلاميذه، وخشى أن يضطربوا منها قال في رسالته:

١٠- نجد ذهبي الفم بهذه الصيغة العامة كل المصاعب والعداوات التي جازها هو نفسه من جانب الأساقفة في رحلة نفيه.

«فَيَجبُ أَنْ يَكُونَ الأُسْقُفُ بلاَ لَوْم، بَعْلَ امْرَأَة وَاحدَة، صَاحياً، عَاقلاً، مُحْتَشماً، مُضيفاً للْغُرَبَاء، صَالحاً للتَّعْليم،غَيْرَ مُدْمنِ الْخَمْر، وَلاَ ضَرَّاب، وَلاَ طَامع بالرِّبْح الْقَبيح، بَلْ حَليماً، غَيْرَ مُخَاصم، وَلاَ مُحبّ للْمَال» (١تس٣:٢-٣). وما يريد أنَ يقوله هو كالآتي:

٥- هذه هي حياتنا، فإن الصحبة الطبيعية للحياة الرسولية هي معاناة البلايا الكثيرة. إنه قال «إننا موضوعون لهذا» ماذا يقصد بهذه العبارة؟

كما أن البضائع (عادة) تؤخذ (للسوق) لتُباع، كذلك الحياة الرسولية جُعلت للمعاناة من الإساءات ولسوء المعاملة، وألا يكون لها وقت أبداً تلتقط فيه أنفاسها أو تستريح.

٦- والذين هم متيقظون، ليس فقط لن يعانوا من الأحداث (المؤسفة) أي خسارة وفقط، بل أيضاً سيستفيدوا منها (ربحاً وإكليلاً). لهذا السبب، بعد أن علم بولس الرسول أن أهل تسالونيكي قد تصرفوا بنبل، عبّر عن إعجابه بهم. (وأيضاً أبدى إعجابه) بآخرين غيرهم فقال؛ إن بعد قيوده وسلاسله تجاسروا على إعلان الكلمة بغير خوف (في١:١٤).

٧- أخبرني ما الذي حدث في عصر موسى في وسط أمة بربرية؟ ألم يسمح الله للسحرة بأن يظهروا أعاجيبهم؟ ألم يذكر بولس الرسول هذا التاريخ؟

«وَكَمَا قَاوَمَ يَنِّيسُ وَيَمْبرِيسُ مُوسَى، كَذَلكَ هَؤُلاَء أَيْضاً يُقَاوِمُونَ الْحَقَّ.» (٢تي٣:٨).
وهكذا لم تقل العثرات أبداً، ولا قلّ البشر الذين استحقوا الإكليل. تفكر في هذا، وليس في هذه (أي في العثرة) فقط، بل أيضاً في المكسب الذي ينتج عنها.

٨- تفكر أيضاً أنه توجد أسباب أخرى سرية لهذه الأحداث، لأنه لا يمكن أن نعلم كل شيء.

تفكر أن الأحداث ستنقلب فيما بعد بطريقة مشجعة وستكون المعجزة عظيمة جداً. وكما كانت توجد في عصر (وحياة) يوسف مصاعب في البداية، وعلى مدى وقت طويل بدت الأحداث وكأنها تأخذ خطاً مغاير للوعد، لكنها بعد ذلك فاقت كل توقع. وفي وقت الصلب لم تكن الأمور تسير بطريقة موافقة، ولم تكن الأعمال تأتي بالثمار المرجوة منها في البداية، بل العثرة هي التي كانت تنتج في البدء، ولم تعط إلا بعض علامات لإثارة الدهشة، ولتقويم من تجاسروا على التصرف بطريقة إجرامية، لكنها في الحال (سريعاً ما) اختفت.

٩- إن كان حجاب الهيكل قد تمزق آنذاك، والصخور تشققت، والشمس أظلمت، فهذه الأعاجيب قد تمت لمدة يوم واحد، ومعظم الناس نسيتها. وأيضاً بعد هذا فإن الرسل تم نفيهم وسط مطاردات ومحاربات وفخاخ، ساعين إلى أن لا يلحظهم أحد مختفين خائفين، وأعلنوا الكلمة وهم في هذه الحالة. والشعب اليهودي أظهر سطوته بطرد وملاحقة وجر وتمزيق من قد آمنوا. وفي الحقيقة فإن اليهود كان معهم السلطان، وكانوا كل يوم يطاردون ويلاحقون الرسل.

١٠- ولماذا الحديث عن الشعب اليهودي والسلطان؟ فإن بولس وهو صانع خيام أمضى كل وقته في الانشغال بالجلود، ومن يا ترى يمكن أن يكون أكثر سذاجة من صانع خيام؟ وهو قد أصيب بمثل هذا الجنون وجرّ بقسوة رجالاً ونساءً وأودعهم في السجن والذي قد صُلب عاني كل هذا .

لكن أنت تنظر كيف أن الذي كان مضطهداً قد فاق فيما بعد كل الرسل، وكيف أن سلوكه كان أكثر لمعاناً من الشمس وملأ الأرض كلها.

الفصل الحادي والعشرون

توجد تجارب كثيرة في كل من العهد القديم والعهد الجديد.

١ - إن قلت: لماذا توجد في العهدين القديم والجديد مخاطر وتجارب وفخاخ كثيرة؟ فأعلمني ما هو السبب؟

إن الحياة الحاضرة، هي ميدان مصارعة، ساحة ألعاب رياضية، جهاد، بوتقة، محل صباغة حيث تصنع الفضيلة. وكما أن الصباغين يأخذون الجلود، يخمرونها أولاً، ثم ينشرونها ويدقونها ويضربونها على الحوائط ويجففوها، وبألف وسيلة أخرى يجعلونها جاهزة لأخذ الصبغة، وهكذا يجعلونها تأخذ صبغة جميلة.

٢ - كما أن الصاغة يلقون الذهب في النار مسلّمين إياه إلى تمحيص الأتون ليجعلوه أكثر نقاوة، وكما أن المدربين يجتذبون الذين يدربونهم لتدريبات شاقة، ويهاجمونهم بشدة أكثر من خصومهم ليقوّموهم أثناء التدريب، ليكونوا مؤهلين في المباراة، وجاهزين لمواجهة ضربات خصومهم والإفلات منها بسهولة، فهكذا الله يتصرف بالمثل في الحياة الحاضرة[11]

٣ - مريداً إعداد النفس لفضيلة تناسب أهدافه فيضعها في البوتقة ويسلّمها لمحنة الآلام، لكيما يشدد من قد فقدوا الشجاعة ومن صاروا غير مكترثين، وليتح لمن قد برهنوا على ثباتهم أن يبذلوا المزيد أيضاً لكي يجعلهم أكثر مناعة ضد فخاخ إبليس وشباك الشياطين، وجديرين تماماً لنوال الخيرات الآتية.

٤ - وفي الواقع يقال أن الإنسان الذي لم يُجرب لا يساوي شيئاً. وبولس الرسول يقول: «**عَالمِينَ أَنَّ الضِّيقَ يُنْشِئُ صَبْراً، وَالصَّبْرُ تَزْكِيَةً، وَالتَّزْكِيَةُ رَجَاءً**» (رو٥:٣-٤) والله إذ يريد جعل البشر أكثر قوة وأكثر صبراً، فإنه يدع النفس (حرفياً العملة النقدية) تُجرب بكل أنواع الطرق.

١١- رجاء أن نضع في اعتبارنا أن الترقيم الموجود في النص الأجنبي أحياناً يفسد المعنى لو نسبيا اسپانية ونسلسل الكلام في الواقع العملي.

٥- إن الله قــد ترك أيــوب ليعاني ما عاناه، حتى ويظهر صلابته في التجربة وليســد فم الشــيطان. وإن كان أرسل الرسل (للكرازة وســط ظروف صعبة) فهذا لكي يجعلهم أكثر شــجاعة وليُظهر هكذا قوته فيهم. وإظهار قوته في ضعفهم ليس بالأمر القليلِ الأهمية، حتى أن بولس عندما أراد أن يتملص من البلايا التي اجتاحته قال له الرب: « **تَكْفِيكَ نِعْمَتِي، لأَنَّ قُوَّتِي فِي الضَّعْفِ تُكْمَلُ** » (**٢كو١٢: ٩**).

الفصل الثاني والعشرون

التجارب ليست فقط لن تعثر من كانوا مهيأين حسناً، بل هي أيضاً مفيدة لهم، حتى لو كانوا من اليونانيين (أي من الوثنيين وغير المؤمنين).

١ – في الواقع إن الذين لم يقبلوا بعد رسالة المسيحية (أي يصيروا مسيحيين) يجنون من هذه التجارب منفعة عظيمة جداً لو كانوا يقظين. لأنهم إذ يرون أناساً يحتملون المظالم ويهانون ويُحبسون ويشهّر بهم، ويصيرون ضحايا للفخاخ (المنصوبة لهم)، تُمزق أجسادهم ويتم حرقهم وإغراقهم، ولا ينهاروا أمام أي خطر، تفكر أي إعجاب يبدونه كإعجابهم – سابقاً والآن – أمام هؤلاء المصارعون غير العاديين. وهكذا لا تكون الأحداث سبب عثرة لمن هم يقظون، بل فرصة أكثر أهمية للتعليم.

٢ – لهذا السبب سمع بولس هذه الكلمات: « **لأَنَّ قُوَّتِي فِي الضُّعْفِ تُكْمَلُ** » (**٢كو١٢: ٩**)؛ ويمكن إثبات هذا الأمر في العهدين القديم والجديد. تفكر فيما اختبره نبوخذنصر عندما انهزم في محضر جيشه من ثلاثة فتية عبيد مسبيين، مقيدين ومطروحين في النار، وكيف أنه لم يستطع التغلب على هؤلاء الثلاثة الخاضعين له في العبودية، والواقعين تحت رحمته محرومين من وطنهم ومن الحرية ومن كرامة العز والغنى، مُبعدين عن أقاربهم. لو لم يقام هذا الحريق الهائل ما كانت هناك مكافأة وما كان هناك إكليل متلألئ.

٣ – تفكر فيما كان ينبغي لهيرودس أن يختبره وهو منهزم من الضلال من إنسان مقيد بالسلاسل، إذ يرى أن قيوده لم تقلل من شجاعته الجسورة، بل أنه فضّل أن يُذبح على أن يفقد هذه الحرية العظيمة للكلمة.

٤ – تفكر أنه بين الناس الذين عاشوا آنذاك والذين جاءوا بعدهم، من الذي يرى ويسمع هذا ولا يجني منه منفعة عظيمة، حتى لو كان فاتر الهمّة تماماً، إنما بشرط أن يكون له بعض الذكاء؟ لا تحدثني عن هؤلاء الجهّال التعساء، عن الذين هم أغبياء هائمون في الجسد وأكثر خفة من أوراق الشجر. هؤلاء يسقطون، ليس تحت ضربات التجارب التي تكلمت عنها فقط، بل أمام أي عقبة أياً كانت، يسقطون مثل الشعب اليهودي الذي أكل المنّ والخبز وكان دائماً عسير

إرضائه، سواء كان في مصر أو خارج مصر، سواء كان موسى غائباً أو حاضراً.

٥- لكن قدّم لي أناساً يقظين منتبهين، وتفكر أية منفعة سيجنونها بدون شك من هذه الأمثلة، في رؤيتهم لنفس غير مقهورة، حكمة لا تدع نفسها تخضع، لسان ممتلئ شجاعة جسورة، إنسان يسكن الصحراء وينتصر على ملك، مقيد و لم يستسلم، رأسه مقطوعة و لم يصمت! ولا تتوقف عند هذا الأمر، بل افحص ما حدث بعد هذا.

٦- قطع هيرودس رأس يوحنا المعمدان. من هو الذي يعلن الكل طوباويته، من هو الذي يثير الغيرة (للإقتداء به)؟ من هو الذي يُعلن اسمه (في كل العالم)؟ من هو الذي كُلل؟ من هو الذي تقام له التمجيدات؟ من هو الذي يُمدح؟ من هو الذي يثير الإعجاب؟ من هو الذي أيضاً يفحم الخطأ (إلى) الآن؟

٧- ألا يصرخ المعمدان في كل كنيسة قائلاً: «لا يحل لك أن تأخذ زوجة فيلبس أخيك» بينما الآخر يُفضح حتى بعد موته، بسبب زناه وظلمه ووقاحته؟

بعد كل ما قلناه، انظر ما هي قوة من قُيد، وما هو ضعف الطاغي؟

٨- هيرودس لم تكن لديه القوة الكافية ليضع لجاماً للسان واحد. إنما بقطعه فتح بدلاً منه، وبفضله، آلاف الأفواه. ويوحنا على العكس أرعبه في الحال بعد القتل، والخوف قَلَبَ ضمير القاتل إلى درجة أنه اعتقد آنذاك أن يوحنا قام من الأموات ويُجري معجزات. والآن، ومنذ ذلك الحين، وبدون توقف، وفي كل أنحاء الأرض، يفحمه بنفسه وبواسطة الآخرين.

٩- في الواقع إن كل من يقرأ الإنجيل يقول: **«لا يحل لك أن تأخذ زوجة فيلبس أخيك»** (**مت ١٤: ٤**)؛ وحتى بدون قراءة الإنجيل، إذ في المحادثات والاجتماعات التي تتم في البيوت وفي السوق أو في كل موضع، حتى إن ذهبت إلى بلاد الفرس أو إلى الهند أو إلى الغرب أو إلى أي موضع على الأرض تشرق عليه الشمس، حتى إلى أقصى الأرض، ستسمع هذا الصوت وسترى هذا البار يتحدث إلى الآن بصوت عالي، يتكلم ويفحم شر الطاغي و لم يسكت، وعلى الرغم من مضي الزمن فإن اتهامه لم يفقد قوته.

١٠- أي ضرر سببته هذه النهاية لهذا البار؟ ماذا استطاع أن يصنعه له هذا الموت العنيف؟ ماذا استطاعت أن تصنعه له القيود، وماذا فعل به السجن؟ من هم الذين لم يضعهم على الطريق المستقيم - بشرط أن يكونوا أذكياء - بما قاله وبما تألم به وبما يعلنه الآن أيضاً والذي هو شبيه لما قاله عندما كان حياً؟ لا تقل لي: ماذا استفاد هو من الموت؟ لأنه لم يكن موتاً بل إكليلاً. ما حدث له لم يكن نهاية بل بداية لحياة أكثر عظمة. تعلّم أن تناضل بطريقة روحية وليس فقط لا شئ يستطيع أن يؤذيك، بل أيضاً ستجني أعظم المكافآت.

١١- ماذا كان من المرأة المصرية؟ ألم تتهم وتشتكي وتقيد يوسف البار وتلقيه في السجن؟ ألم تعلق على رأسه أسوأ الأخطار؟ ألم تخسف به بقدر ما كان في استطاعتها؟ ألم تشمله بسمعة رديئة؟ فبماذا تضرر في تلك اللحظة أو الآن؟ وكما أنه عندما تغطي الفحم المتقد بقش يبدو في البداية أنه اختفى، لكنه في الحال يلتهم ما قد وضع فوقه، وبفضل هذا القش نفسه يصعد لهيبه عالياً، هكذا الفضيلة، حتى لو تثقلت بالإساءات، فبفضل العقبات نفسها، تزدهر بالأكثر بعد ذلك وترتفع إلى السماء.

١٢- من هو أكثر سعادة من هذا الشاب (يوسف) وذلك بفضل التشهير الذي حل به، والفخ الذي نُصب له، وليس بفضل عرش مصر ولا بفضل المملكة الأرضية التي كانت له؟ لأن المجد والاعتبار والأكاليل محفوظين في كل موضع للآلام. وغير هذا ألا يُحتفل به في كل الأرض؟ ثم إن طول الزمان الذي مضى لم يجعل ذكراه تذبل، بل أن صور فضيلته وحكمته موجودة على الأرض بأكثر لمعان ودوام مما لتماثيل الملوك عند الرومان وفي البلاد البربرية، وفي ضمير ولسان كل أحد.

١٤- نحن نراه وهو سجين مجبراً على الطاعة، يقوم بواجبه من جهة هذه المرأة التعيسة الخليعة، صانعاً كل ما في وسعه من أجل إنقاذها وإجبارها على الخجل وإطفاء الأتون، مجتهداً في انتشالها من العاصفة المرعبة، واقتيادها إلى الميناء (بسلام). لكن لما ازدادت العاصفة وغرقت السفينة، وإذ هي قد اكتأبت (من صده لها) نراه يفلت من الأمواج ، تاركاً ثيابه بين يدي تلك المرأة، وهو أكثر بهاء في عريه عن أناس يلبسون الأرجوان، ومثل سنبلة أو نصب تذكاري أمام نصب حكمته.

١٥- ونحن لم نفقد تذكره على مدى الأحداث الواقعية، بل نراه من جديد سجيناً مقيداً عائشاً في القذارة ومتضجراً هناك على مدى وقت طويل وبسبب هذا على الأخص نحن نبدي إعجابنا به، ونقول بطوباويته ونصاب بدهشة منه ونمدحه. إن كان أحد حكيماً، في تأمله في يوسف يصير أكثر حكمة، وإن كان أحد شهواته هائجة، فإنه يوجهها بواسطة هذه القصة نحو الحكمة، وهذه القصة تجعل حاله أفضل.

١٦- وفي قراءتكم لكل هذا لا تضطربوا، بل انتفعوا بما حدث. وليت صبر الذين يجاهدون يكون معلماً لكم للصمود. وفي رؤيتكم لحياة الناس النبلاء وذوي النفوس السامية — منسوجة بمثل هذه الأتعاب - فلا تخوروا من التجارب الحادثة لكل واحد وللمجتمع والمسيحي بصفة عامة، إذ أن الأمر هو هكذا بالنسبة للكنيسة منذ البدء، إذ أنها تغتذي بالمعاناة وبها تكلل وتتمجد. لا تكونوا مندهشين، فلم يحدث شيء أبداً غير عادي.

١٧- وكما أنه في الحياة العامة فإن اللصوص والقراصنة وثاقبي الحوائط يسببون دائماً انزعاجاً ومضايقة لمن يملك الذهب والأحجار الكريمة، وليس لمن لديه قش وتبن ورمل، هكذا عندما يرى الشيطان غنى متراكم لدى النفس، وتقوى فائضة لا يمكن إنكارها، ففيها ينفّذ مكائده ويتقدم لمحاربتها. لكن لو كان ضحايا هذه الهجمات يقظين، ليس فقط أنهم لن ينهزموا، بل وسيجمعون كنزاً عظيماً جداً من الفضائل، وهذا هو ما يحدث بالفعل.

الفصل الثالث والعشرون

ما حدث هو علامة عظيمة على مجد الكنيسة، وكثيرون انتفعوا به.

١ - يمكن اعتبار هذا كعلامة عظيمة على الفضائل المتراكمة لحساب الكنيسة وعلى شجاعتها. عندما رأى الشيطان الشرير الكنيسة مزدهرة ومكرمة ونامية في وقت قليل، وممتلئة غيرة. عندما رأى الجهود نحو أعمال أفضل من جهة من كانوا سابقاً محل اعتبار، والتحول نحو التوبة من الذين كانوا عائشين في الخطية، والأرض كلها تلقت التعاليم (الروحية) من هذه المدينة الشهيرة (القسطنطينية)، فإنه تحرك بكل دسائسه، وأشعل حروباً داخلية.

٢ - كما بالنسبة لأيوب، فتارة فقد أملاكه، وتارة أخرى حُرم من أولاده، وتارة حالته الصحية متدهورة، وتارة أخرى لسان زوجته (يطعنه)، تارة الإهانات وتارة أخرى السخرية والإساءات التي وجهها إليه أصدقاؤه، إذ أن الشيطان تحرك وتقدم بكل أنواع المكائد، هكذا بالنسبة للكنيسة. فبواسطة الأصدقاء والأعداء ومن يشغلون مناصباً في الإكليروس، ومن كانوا في الجيش، ومن الأساقفة، وبشخصيات عديدة من كل نوع حرك الشيطان كل من هو خاضع له.

٣ - ولكن عندما دبر فخاخاً كثيرة، فإنه لم يزعزعها فقط، بل أيضاً جعلها أكثر بهاء.

لأنها لو لم تكن مضطهدة، ما كانت شكلّت البشر مثلما تعلّم الأرض الآن التعفف والسيطرة على الأهواء، واحتمال التجارب، وإظهار الصبر، واحتقار أمور الحياة، وعدم صنع أي اعتبار للغنى، والضحك على الكرامات (ومظاهر التعظيم)، واحتقار الموت والاستخفاف بالحياة، وعدم الاعتبار للأقارب والأصدقاء والأهل، والاستعداد لتلقي كل أنواع الأضرار، والاندفاع نحو السيف (للاستشهاد)، واعتبار كل تعظمات الحياة الحاضرة — أقصد الكرامات والمجد والقوة والترف — مثل أكثر أزهار الربيع الضعيفة.

٤ - وهي لا تعلّم هذا لواحد أو اثنين أو ثلاثة فقط، بل لكل الشعب، ليس بكلماتها فقط، بل بأعمالها، بآلامها، بانتصاراتها، بالفخاخ التي تنتصر عليها، بالصمود الذي تقاوم به كل ما يأتي عليها، وهي أكثر قوة من الفولاذ، وأكثر ثباتاً من الصخر، دون أن تستخدم أسلحة،

أو تعلن الحرب، ودون إطلاق حربة أو ســـهم، بل تحيـــط كل واحد بترس الصبر والتعقل والوداعة والشجاعة، فتجعل من يؤذيها يمتلئ خزياً من أتعابها.

الفصل الرابع والعشرون

الذين اقترفوا المظالم قد عوقبوا.

١- ما هو أكيد على الأقل أن البعض الآن لهم وجه مضيء بنظرة رجل حر وبشجاعة جسورة يستحيل وصفها، يذهبون ويجيئون في السوق.

يعيشون في بيوتهم، يذهبون إلى القداس، بينما الآخرون الذين اقترفوا الأعمال الرديئة يتخفون تحت أحد مكائدهم التي عملوها، وإذ لهم ضمير ردئ، يذهبون هكذا إلى كل موضع وهم خائفون وممتلئون رعدة.

٢- ومثل الحيوانات المفترسة التي أوشكت على الموت، فإنها بعد الإصابة الأولى أو الثانية، تكابد تحت ثقل وثبتها من ضربة قاسية، والجروح التي أصابتها حتى إلى عمق أحشائها. وكما أن الأمواج المندفعة تتكسر على الصخور وتتلاشى، هكذا هؤلاء الناس يحفرون حفرة – بالفخاخ التي نصبوها – أمام أنفسهم أكثر مما أمام الآخرين.

٣- لأن الأولين، ضحايا العداوة في المسكونة، يحبهم ويمتدحهم ويعجب بهم ويعلن أسماؤهم ويكللهم الذين يعرفونهم والذين لا يعرفونهم، الذين علّموا بأعمالهم الحسنة سواء لرؤيتهم لها وهي تتم، أو بسماعهم عنها، الذين شاركوا في عدد كبير من أتعابهم وجهاداتهم وكل الذين طلبوا لهم السعادة.

لكن على العكس، فإن الآخرين الذين دبروا هذه الخطط العدوانية، فإن كثيراً من الناس يلومونهم ويهاجمونهم، يقنعونهم بجرائمهم ويهينونهم، يوجهون لهم إساءات كثيرة ويتمنون رؤيتهم معاقبين ومؤدبين.

٤- وكل هذا يحدث على الأرض.

لكن ما الذي ينبغي أن يعطوا عنه حساباً فوق؟ إن كان الذي يعثر مجرد واحد يُعاقب هكذا بشدة إذ خير له أن يعلق في عنقه حجر الرحى ويغرق في لجة البحر (مت١٨: ٦)، فتفكر أية عقوبة سيكابدونها أمام هذا المنبر الرهيب، أية دينونة سيُحكم بها عليهم، وهم الذين بالقدر الذي كان في استطاعتهم أزعجوا الأرض كلها وقلبوا الكنائس معلنين الحرب على سلام هكذا

عميق، ومطلقين آلاف العثرات في كل موضع.

٥- أما الذين عانوا من جانبهم كل ما عانوه، فإنهم سيقفون خلف الشهداء والرسل والنبلاء والشجعان مستنيرين بأعمالهم الصالحة، بآلامهم، بأكاليلهم، بمكافآتهم، بثقتهم الفائضة.

٦- وسيرون الآخرين معاقبين، ولن يستطيعوا أن ينتزعوهم من العقوبة حتى لو أرادوا هذا ألف مرة، وسيتضرعوا إلى الله لأجلهم، وهذا لن يفيدهم بشئ. إن كان الغني الذي كان يمر بجانب فقير واحد وهو لعازر عانى مثل هذه العقوبة و لم يجد أية تعزية، فكم سيعاني أولئك الذين اضطهدوا أناساً كثيرين وأعثروهم؟

٧- تفكروا في كل هذا، واقطفوا من الكتاب المقدس أفكاراً مشابهة كملاذ أكيد لكم، والقصص (الكتابية) كعلاج لمن كانوا أكثر ضعفاً، واستمروا ثابتين غير متزعزعين، منتظرين الخيرات المحفوظة لكم (في السموات).

٨- لأنه بالتأكيد ستوجد مكافأة لكم، لا تعادل أبداً أتعابكم بل تفوقها جداً بما لا يوصف. هذا هو الله الذي يحب الإنسان. فالذين قرروا عمل أو قول أي شيء من الخير، اعتنى هو بأن يفوقهم بعطاياه ومكافآته.

العناية الإلهية

لا قيمة للحياة دون أن نفحص أبعادها، ونكتشف القيمة الهائلة وراء كل لحظة نعيشها، وكل تجربة نخوضها، وكل عناية نتمتع بها من يد الرب القدير....

وهذا الاكتشاف توصل إليه القديس يوحنا ذهبي الفم، وقدمه لنا بصياغة مدهشة تساعدنا على رؤية الأمور التي كانت خافية... ونلمس قوة الله التي تساندنا، وعنايته التي ترعانا.

قالــوا عن القديـس يوحـنا ذهبي الفـم:

" عظيماً في كتاباته الدسمة في مواضيع كثيرة أهمها عظاته عن التوبة ولاهوت المسيح وتفاسير الكتاب المقدس"

الأنبا بطرس- الأسقف العام بالكنيسة القبطية الأرثوذكسية

" صوت يتردد صداه منذ أكثر منذ ألف وستمائة سنة ولا زالت طاقته الروحية تتدفق عبر القـرون... كتاباته أزهار روحية تزهو بألوانها في البـــستان الروحـي"

الأنبا يوحنا قلته – النائب البطريركى للأقباط الكاثوليك

"شجاعته منقطعة النظير جعلته لا يعبأ باضطهـاد الإمبراطـور الروماني له واستبعـاده من مكانتـه كأسقف القسطنطينية... كتاباته تعتز بها الكنائس الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية والأسقفيـة"

المطران د. منير حنا أنيس
مطران الكنيسة الأسقفية



